1008
Harlequin
سلسلة قصص وروايات حب
دار النحاس
١٠٠٨

المهر المهلك

كاثرين أوكونور

www.rewity.com/vb
بلا عنوان

أمير المملكة

كاثرين أوكونور

وحيدة في بلاد الغربة، أحست جيمسي بالفرح عندما ساعدها أحد السكان المحليين، خاصة، أن روس ستيوارت، الرجل الذي ساعدها، كان جذاباً ووسيماً.

وكان ذلك قبل أن يكتشف حقيقتها. لقد كانت عائلتيهما، أعداء إلداء منذ عدة أجيال، ولم يتغير شيء حتى الوقت الحاضر.

ولكن على الرغم من خلافاتهما، شعرت جيمسي بانجذاب نحو السيد المتعجرف، حتى وهو يحتقرها.

الفصل الأول

تجمدت جيمسي في مكانها، وأنناها صاغيتان. هي متأكدة من سماعها ضجة في الخارج. بلعت شعور الخوف الذي انتابها وهي تحاول الاصغاء بانتباه، وجميع حواسها تنبئها بحدوث شيء غير متوقع. إنها الليلة الرابعة على التوالي، تسمع فيها كأن أحداً يطوف حول البيت بحثاً عن فريسة، لكنها قررت عدم الاستسلام، فهي لا تفكر بترك المكان، وليس في استطاعة أحد إجبارها على ذلك. فلا داعي للخوف خاصة وأنه لم يحصل أي شيء حتى الآن. أما إذا حاول روس ستيوارت شيئاً من هذا، فإنه يكون مخطئاً جداً، فكرت بتجهم وهي تجلس على المقعد، فاركةً يديها حول فنجان القهوة الساخن الذي تحيطه براحتيها طلباً للشعور بالراحة وصورة وجهه المزعج وعينيه السوداوين القاتمتين تتراءى أمامها، مما جعل دقات قلبها تتسارع. أخذت نفساً عميقاً وهي تحاول التركيز على الصحف القديمة المبعثرة هناك. تنهدت وهي تبعد خصلة من شعرها الأحمر عن وجهها. وعلى الرغم من كون المهمة التي تسعى إليها شاقة، فإنها مصممة على معرفة الحقيقة.

انطلق، فجأة، شيء من النافذة كاسراً زجاجها مما جعلها تطلق صرخة استغراب. أسرعت نحو الباب وقد استلت في يدها الخنجر الحديدي، الطويل، غير المصنع والذي وجدته في طريقها المضاءة. ولا بدّ أن الشيء الذي هشم الزجاج

موجود في مكان ما من الغرفة، ارتعشت جيمسي مما حصل. أقفلت الباب بشدة، وعادت إلى الداخل تبحث عما كسر النافذة، وجدت الحجر والتقطته وأخذت تقلبه برفق بين راحتيها، قطبت حاجبيها باهتمام. رمت الحجر في الموقد بتوتر، وقامت بعد ذلك بتنظيف المكان من الشظايا المبعثرة في شتى أرجاء الغرفة. أطلقت صرخة ألم من دخول قطعة إلى يدها الناعمة. انتزعت قطعة الزجاج وقامت بامتصاص الدم الذي سال من يدها. ثم عادت إلى مقعدها، وهي أشد تصميماً من السابق لتبرئة اسم عائلتها.

عند وصولها، كان كل شيء مختلفاً. فالرحلة من لندن كانت مملة. الطريق الممتد بلا نهاية، السير المزدحم، تسببا في ازعاجها طوال الرحلة، وبقيت الأمور على هذا النحو إلى أن اجتازت مدينة لانكستر، حيث اتجهت الأمور إلى التحسن. أخذت مناظر الريف الإنكليزي الطبيعية والخلابة تتكشف أمام ناظريها، وكأن أحداً، ينشر المناظر الخلابة خصيصاً لمتعتها. تنهدت جيمسي، أصبحت الرحلة ممتازة. ابتسمت عندما أعلن عن الوصول إلى دنكلي. بدت القرية محاطة بالتلال الضخمة. لقد كانت تماماً كما تخيلتها، قرية رائعة. شارع رئيسي يزدحم بالمحال المصفوفة على جانبيه، يفصلها عن بعضها بعضاً المقاهي الفخمة. ورائحة قهوتها الغنية المحمصة تملأ الهواء النقي، وكل شخص يمجد طريقة موطنه في صنع القهوة. أما في محل بيع الكتب، الذي يقع على ناصية الشارع فكان مليئاً بالعديد من الطاولات المرصوفة بالكتب والموضوعة إلى جانب الاتوستراد. وقررت جيمسي تناول فنجان قهوة واحداً،

على الأقل. يمتد الشارع الرئيسي فوق الجسر، الذي يمتد بدوره فوق النهر المتدفق الذي يقسم القرية. اعتلت إحدى ضفتيه غابات كثيفة، وعلى الأخرى ارتفعت كنيسة قديمة ضخمة، تنبسط على المناظر الطبيعية، والمروج الخضراء الجميلة التي تمتد على ضفة النهر.

ابتاعت جيمسي غداء خفيفاً من لفائف الجبنة وفطيرة التفاح. وكانت شمس صيف أيلول دافئة في ذلك اليوم على غير عادتها، لذا فإن جيمسي تنزهت في محيط دنكلي متنشقة العبير. مشت نحو النهر، بعد أن تناولت طعامها، متعت نفسها برمي الفتات للبط الدائم الجوع، المصطف على طرف النهر. كان كل شيء فيها مفعماً بالحيوية في ذلك النهار، إذ شعرت كما لو أنها قدمت إلى وطنها. ثم رأته، واقفاً والمياه المتدفقة تغمره إلى وسطه. ابتسمت وقد دغدغت أوتار قلبها ذكريات والدها، المنسية منذ زمن. افتتنت بمهارته. رفع يده ملوحاً بها فوق رأسه ودفع نفسه نحو الماء بقوة ولباقة. أبقى جسده صامداً أمام التيار. وبدت عضلاته المشدودة من تحت معطفه الأخضر. رفع جسمه بثبات وأصابعه تضرب الماء بسرعة. تطاير رذاذ الماء، وصرخت جيمسي من الإثارة، عندما رأت أسماك السلمون تتطاير على شكل قوس قزح. افتتنت بكفاحه ضد التيار، لقد صمم مسبقاً على كسب المعركة. والتركيز بادٍ على وجهه. على الرغم من أن النصر لا يأتي بسهولة، ولمرات عديدة ظنت جيمسي أنه سيخسر المعركة. وعندما أصبح الفوز حليفه رفع سمكة منتصراً، فصفقت له جيمسي بطريقة عفوية. التفت، وكانت اللحظة التي لا يمكن أن تنسى.

بعثت أشراقة ابتسامته فيها شعور الدفء على الرغم من المسافة بينهما، لوحت له مبتسمة بعذوبة. بقيت هناك تراقبه وتراقب النهر إلى أن أرغمتها أشعة الشمس الدافئة، إضافة إلى إرهاق السفر، على إغماض عينيها.

مررت جيمسي يدها على وجهها بكسل لإيقاف الإحساس بالنعاس، ولكنها بقيت مغمضة العينين إلى أن أرغمت على فتح عينيها. إنها تُواجهُ رجلاً همجياً، يبدو أنه غير قابل للترويض. وكان شعره الكثيف مزيجاً من الاشقرار، يتراوح ما بين البني الفاتح والأصفر الشاحب، وقد انسدل على جبهته المنحوتة كلبدة الأسد. بدا خطيراً أيضاً، وكأنه بعيد عن معالم المدنية. لم يروض بعد، سعيد في الهواء الطلق، حيث بإمكانه تنشق الأريج بحرية، من دون أي تحريم. استلقى على الأرض بجانبها، ينظر إليها بسعادة حقيقية.

«هل تزورين دنكلي؟» سأل وعلى فمه ابتسامة عريضة تكشف عن أسنانه البيضاء القوية.

«نعم، أبحث عن مكان للسكن، سأمضي هنا بعض الوقت، أبحث عن تاريخ عائلتي.» أخبرته، وقد أعجبت بخشونته اللطيفة.

بعدها عرض عليها كوخاً، لقضاء الوقت الذي تريده. وبدا لها ذلك شيئاً مثالياً. أمضيا الفترة المتبقية يضحكان ويمرحان. أخيراً تبعت سيارته الجيب، بحذر على الطريق الصغيرة الوعرة المؤدية إلى الكوخ. ضغط بقوة على مزلاج البوابة الخشبية، الحمراء اللامعة، تذكرت فيما بعد المجهود الذي بذله، فاستغرقا في الضحك. مشيا إلى

الكوخ تحت العرائش، الممتدة على طول الممر المفروش بالحصى حتى الجدران المغطاة باللبلاب. عندها، ارتكبت غلطتها.

«اسمي روس، روس ستيوارت.» قال وهو يمد يده مصافحاً ويبتسم مرحباً.

«اسمي جيمسي ماكدونالد.» أجابت ببراءة، شعرت وهي تتناول يده لتصافحه بقبضته تشد على يدها بعد أن تكلمت.

«ماكدونالد؟» ردد غير مصدق، وقد قطب حاجبيه. «وهل أصل عائلتك من هذه المنطقة؟» سأل وفي صوته برودة لم تستطع إدراكها.

أومأت جيمسي رأسها، مؤكدة: «من هنا من دنكلي، رحل جدي الأكبر جيمس ماكدونالد، وقد تم ترحيل العائلة بأكملها في سفينة السجناء إلى أوستراليا.» ابتسمت. لقد اعتقدت أنه شيء مثير، لا شيء يدعو للخجل. كل هذا حدث منذ زمن بعيد. لكنه لم يبد مستمتعاً. أقفل عينيه وكأنه يحلل كل ما قالته، وتصلب وجهه بالغضب.

«هل تكلمت مع أحد ما في القرية؟» قالت بشكل لاذع ودفعها داخل الكوخ، وكأنه يود أن لا يراها أحد. استغربت جيمسي هذا التغيير المفاجيء، أصبح روس بارداً قاسياً، وتجهم وجهه بالغضب، بدل الابتسامة التي كانت على وجهه.

تساءلت باستغراب: «ما الخطب؟» عندما دفعها بوحشية نحو الكرسي وعيناه تشعان ببريق بارد. دفعت يديه عنها، وانتصبت واقفة بغضب من هذا السلوك العدواني، دفعها ثانية ووقف أمامها ليمنعها من الوقوف مما جعلها ترتعد من الخوف.

وبصوت بارد حاد أمرها بالبقاء على كرسيها، وقال لها مستهزئاً: «إني افترض أنك لا تعرفين شيئاً عن عائلتك.» عيناه الرماديتان تهتزان باضطراب بينما ينقر بيده على الكرسي. هذا السلوك جعل جيمسي منزعجة من وضعها.

ابتلعت جيمسي ريقها، إثر نوبة الذعر التي انتابتها، تنفست بعمق، وأجابت مدافعة: «إن مئات من الأبرياء تمّ نفيهم إلى أوستراليا.» وقد أحست بكراهية نحو سلوكه المتسلط. لاحظت الغضب يجتاحه ولكنه بقي مسيطراً على نفسه.

«قد يكون بعضهم أبرياء، ولكن عائلتك لم تكن بريئة بالتأكيد.» أجاب وصوته ينم عن الشعور بالظفر، ووميضات الغضب تبرق من عينيه.

«كيف بإمكانك التأكد إلى هذه الدرجة؟» أجابته باستهزاء، وقد طرحت جانباً شعور الرعب على الرغم من أحساسها بالغثيان. حدق بها للحظات وهو يعض شفته العليا.

«إنهم سرقوا آل ستيوارت.» قال بإيجاز، وتابع: «وعائلتي هي التي أجبرتهم على الرحيل.» قال بازدراء وبريق الانتصار يشع في عينيه الرماديتين الغاضبتين.

«قد تكون عائلتك على خطأ، ولكني لا أرى داعياً لكل هذا الاهتمام!» قالت وهي مقطبة من سلوكه المتكبر. ابتسم ببطء، وأحست به يوبخها بتعبير الواثق من نفسه. حاولت جيمسي التغلب على شعور الغضب الذي انتابها،كانت عيناها تشعان عندما دفعت خصلة من شعرها فوق كتفيها.

«آه، هذه هي الحقيقة!» قال بنبرة ازدراء. «إننا الآن كما

كنا منذ زمن العشائر، العائلة الأكثر فعالية في المنطقة. اؤكد لك ذلك، ولم نكن أبداً على خطأ.» رمقها بنظرة سريعة وعيناه الرماديتان باردتان كالثلج.

عضت جيمسي على شفتها السفلى، صحيح أنها لا تعرف شيئاً عن تاريخ عائلتها، ولكن فكرة كونهم لصوصاً آذتها كما تؤذي أياً كان. رمقته بنظرة تنم عن أسفها، تجاه هذا التصرف. لقد حدث هذا في الماضي البعيد وهو يتكلم عنه وكأنه حدث بالأمس. تأكد شعورها بأنها أخطأت الحكم على هذا الرجل، الذي يبدو بارداً، قاسياً، ومن بدون إحساس. فجأة خطر ببالها أن الفكرة بكاملها سخيفة.

«سيد ستيوارت، هذه الأحداث جرت منذ سنين عديدة، لذا أرى أنه من الأفضل نسيانها، ألا ترى ذلك؟»

«كلا!» أجابها بصوت مرتفع، وعيناه تقدحان شرراً، وكأن هذه الفكرة قد سببت له الطرد من الجنة. «إن العار الذي لحق بعائلتي بسبب سوء أمانتك، لن ينسى أبداً.»

«ليس سوء أمانتي، بل سوء أمانة أحد أجدادي، على حد زعمك.» أجابته ببرود، مصححة معلوماته.

«أخطاء الآباء يتحملها الأبناء.» أجابها بقساوة، وكراهيته لها ظاهرة في نبرة صوته. أحست بشعور من الغضب يتنامى داخلها. وعلى الرغم من قلة معرفتها بتاريخ حقيقتها، فقد قررت الوصول إلى الحقيقة.

ردت جيمسي: «لا أستطيع تصور، أن أحداً من عائلتي كان لصاً...» تلعثمت من نظراته المحدقة بها، أخذت نفساً عميقاً وتابعت: «سوف أثبت لك براءتهم، وربما تكون عائلتك أخطأت هذه المرة.» ردت بفم مضغوط فيما تكبره يزيد من

حدة توتر أعصابها. ضاقت عيناه واقترب خطوة نحوها ووجهه القاتم ينم عن الوعيد.

«إنك تضيعين وقتك فقط، فلن يساعدك أو يساعد أي شخص من آل ماكدونالد، أحد في القرية.» قال بشكل تهديد ومد أصابعه وتناول خصلة من شعرها انسدلت أمام وجهها، شعرت بالإثارة تسري في جسدها من جراء لمسته. وقفت بسرعة، محاولة كبت الإحساس الذي سببته لمسته، وفي وجهها غضب، وسلوكها زاخر بالعزم والتصميم.

«إني أعرف القليل عن أجدادي ولكنهم كانوا فرساناً جيدين، كما سمعت عنهم، وسأناضل لتبرئة ساحتهم.» أعلنت بقوة وحماسة، ولكنها في داخلها لم تحس بهذه الثقة التي صرحت بها، وطلبت المساعدة من الله لاثبات ذلك.

«النصر حليفي دائماً.» قال بسرعة، متجاهلاً صرخات عواطفها المكتومة. «إنكِ تضيعين وقتكِ.» قال مبتسماً وبقساوة ووحشية.

شتمته في قرارة نفسها وهي تشبك يديها. «سوف أثبت أنك على خطأ.»

ابتسم بفتور: «أعتقد غير ذلك.» ورمقها بنظرة حدس، ناقدة، جعلتها تزداد غضباً. «إني أكره الذين يتدخلون في شؤون عائلتي ولو في أمور حصلت منذ قرون، وعليكِ تذكر ذلك.» حذرها بقوة.

«سوف أفعل ما يحلو لي.» أجابته بثقة أكثر مما تحس بها فالموقف غير مناسب لإظهار أي ضعف.

«عليك أن تفعلي ما أخبرتك به، وإلا أجبرتك على الخروج من بنكلي.» قال روس.

بعد لحظة صمت، قالت له بتحدٍ: «لن تجرؤ على ذلك.»

«إني أجرؤ على ذلك يا آنسة ماكدونالد.» قال مهدداً بصوت شرير، وأضاف: «إني أنصحك بشدة أن تأخذي كلماتي بعين الاعتبار.» قال ذلك وعيناه تضيقان وتشعان غضباً.

ارتعدت جيمسي، وشعرت بعدم قدرتها على إجابته. نظرت إليه مقطبة جبينها، وشعور الغضب يغلي في داخلها. تمنت أن تلكمه، ورأت فيه الهدف المناسب للأخذ بالثأر، فصممت على ذلك.

التفت روس وعضلاته مشدودة. «لا أريد أن يعرف اسمك أحد، اختاري لك اسماً آخر.» أمرها، ثم خرج، مقفلاً الباب. دفعت جيمسي كتاباً نحو الباب، فاصطدم بالخشب الصلب ثم وقع على الأرض. ثم غرقت في كرسيها، تستمع إلى صوت محرك سيارته يبتعد شيئاً فشيئاً، أطبقت عينيها بشدة.

هزت رأسها محاولة استرجاع ما حصل معها. لم ترَ روس ستيوارت بعد تلك الحادثة، ولكنها مقتنعة الآن، أنه قد اتفق مع أحد ما لإرعابها، من خلال تجواله خلسة حول بيتها أثناء الليل. تنهدت، وهي تشعر بالوحدة تسري في عروقها. وضعت قطعة من الورق المقوى مكان الزجاج الذي تهشم، لتشعر بحماية ما.

استيقظت جيمسي صباح السبت، والأفكار تتسارع في مخيلتها، عن حقيقة أجدادها الاسكتلنديين. فقد اكتشفت هذه الحقائق من خلال بحثها عن جذور عائلتها، ولم تكن لتعرف إلى أين سيقودها هذا البحث. وعلى الرغم من مضي

ما يزيد على المائة عام على ترحيل جدها جيمس ماكدونالد إلى أوستراليا، بعدما ترك اسكوتلندا فقد بدا ما قاله روس لها غريباً. لقد وافقت جيمسي على التحقق من هذا الموضوع على الرغم من المشكلات التي سوف تعترضها، ومع ذلك فقد أحست بالأمان. فشعور الإنتماء افتقدته منذ وفاة جدتها لأبيها. قفزت عن السرير، على الرغم مما جرى لها ليلة الأمس، فقد استغرقت في نوم عميق وصممت على عدم إظهار خوف أو استسلام. استحمت بسرعة، وارتدت ثيابها باستعجال نظراً لبرودة الطقس. ارتدت كنزة، لونها بيج، سميكة، اشترتها من معمل محلي في أوستراليا، وارتدت معها سروالاً بنياً، خاصاً بالتزلج، وانتعلت حذاءً عالي الكعب من الجلد، لونه بيج، لف كاحليها التحيلين. ومع أنها لا تلبس هذه الثياب إلا في المناسبات، فإنه من الصعب عليها إخفاء كونها امرأة جذابة. رمت بخصلات شعرها الأصفر إلى الأمام وإلى الوراء بعد أن جففته، وتركته منسدلاً على كتفيها بطريقة تبقيه منساباً بشكل دائم.

تناولت معطفها من المشجب السنديانى، ألقت نظرة في المرآة. ابتسمت لنفسها وعيناها الخضراوان مفعمتان بالحيوية والديناميكية. استمتعت بالتحدي الذي شغل الفراغ الذي تعيشه. طاطأت رأسها من دون كلام، مقسمة على أن تبقى مسيطرة على نفسها، مهما كانت أسباب الإثارة.

لفح هواء الصباح البارد أنفها، نقياً منعشاً، طارداً كل أثر تبقّى من الشعور بالنعاس. بدأت جيمسي بالمشي نحو

القرية بخفة ورشاقة، زاخرة بالثقة في نفسها، على الرغم من كل ما حصل معها. أعدت أمرها لشراء بعض الخبز من دون عناء، مع أن صاحب المحل كان فظاً، حيث لم يظهر شيئاً من اللطف، متجاهلاً تماماً الرد على تحية الصباح التي ألقتها.

علاوة على ذلك كان زجاج النافذة المحطم مسألة مختلفة. فالمتجر الصغير، المتخصص بهذه الأعمال والمليء بالرفوف، ولا تتسع مساحته إلا شخصاً واحداً، وقوفاً. وبدا مالكه، آنجوس رامسي، قديماً قدم المتجر نفسه، وبعيداً عن عمره، وتبين لها أنه الوحيد في القرية الذي بإمكانه عمل كل الأشياء الغريبة التي يمكن تصورها.

«ماذا تعني بأنك لا تستطيع إصلاحه؟» سألت بشك وعيناها تبرقان بالانزعاج، رفعت شعرها من أمام وجهها وردته إلى خلف ظهرها.

«إنها ممتلكات ستيوارت وهو من يأمر باصلاحها.»

تساءلت جيمسي باستغراب: «وما الفرق في ذلك؟»

«عليكِ مراجعته، وإذا أراد ذلك فإني سأفعل.» أجاب الرجل قبل أن يدير ظهره مشيراً إلى إنهاء الموضوع.

«إذاً، عليّ أن أحضر شخصاً آخر لهذا العمل.» أجابت جيمسي بسخط، لأنها لا ترغب سؤال روس ستيوارت عن أي شيء. تعالت أصوات التذمر والشكوى من بقية الزبائن واستدار آنجوس بسرعة وعيناه تلمعان وتشعان بالسخط.

«لو كنت مكانك، ما فعلت ذلك، لأن المالك لا يحب هذا.»

«ما هو الشيء الذي لا أحبه؟» جاء صوت روس ستيوارت جلياً وقوياً وبدا كأن صداه يتردد في أرجاء المتجر. نبرته دليل على سطوته، والتفت الجميع لرؤيته. وقف عند مدخل المتجر ورأسه يكاد يصطدم بسقف المحل المنخفض. رمته جيمسي بنظرة سريعة خاطفة؛ ازدادت دقات قلبها حين سمعت صوته وجاهدت نفسها، مصممة على عدم إظهار أي عواطف تجاهه. أدركت مدى تكبره وغطرسته حينما نظرت إليه، بدت كأنها غير مبالية بارستقراطيته وبسلوكه المشحون بالغطرسة والثقة بالنفس التي أثارتها، وفي الوقت نفسه جعلتها تستشيط غيظاً. انتصب، بشكل مفاجيء، وجسده النحيل، القوي العضلات يسد مدخل الباب وحضوره بعث دفعة من الإثارة في جيمسي. نظر إلى كل شخص بنظرة إدراك حادة، محاولاً تقييم الوضع، أرسل بعدها نظرة خاطفة نحوها، وتسمرت عيناه فجأة في اتجاهها. شعرت جيمسي بشعور من العداء إزاءه، كما أحست بالرغبة في التقيؤ، عند إحساسها بنظرات عينيه الداكنتين نحوها. الصمت الذي تبع كلماته كان محسوساً. توتر الجو وأبقت جيمسي رأسها منخفضاً وهي تحاول السيطرة على نفسها. وبدت متمردة ومغتاظة. أخذت نفساً عميقاً قبل أن تجيبه: «عندي نافذة بحاجة إلى تصليح.» قالت ببرودة وهي تنظر إليه بعين الإتهام. لقد عرفت أنه المسؤول، وأنه أخطأ بارسال شخص ليتسلل في الليل، ويحاول اخافتها، فكرت باستياء وهي غير مطمئنة له، تماماً. بادلها النظر بعداء متساوٍ وبعينين ضاقت حدقتاهما.

«سوف أرى كيف يمكن إصلاحه.» أجاب بحدة، مشيراً إلى آنجوس أثناء كلامه.

«ألست فضولياً لمعرفة كيف انكسر الزجاج؟» سألت جيمسي وعيناها تشعان غضباً إزاء سلوكه المتعجرف.

«الشيء الوحيد الذي يبهجني هو معرفة متى سوف ترحلين؟» أجاب بفظاظة وعضلات جسمه مشدودة، واقترب منها. هنا أحست جيمسي برائحة عطره النفاذة. وشعرت بارتعاش ورجفة، لكنها بقيت في مكانها. فهي لم تقطع كل هذه المسافات كي تدعه يسيطر عليها. حملقت فيه مرجعة رأسها إلى الوراء بتحد، بحيث أصبح بإمكانها النظر إليه بشكل مباشر. وعلا فوقها ولعنت سراً قوامها الصغير. الذين يولدون كباراً، يكون وقوعهم كبيراً... لطالما سمعت جدتها تقول هذا. تمنت لو كان هذا صحيحاً. لأن ذلك الوضع لا يطاق، قطعاً، فكرت بقلق وعيناها تتفحصان، بسرعة، حركات جسمه. بلعت ريقها وأخذت نفساً عميقاً، على الرغم من تزايد دقات قلبها فإنها حاولت أن تبدو هادئة. نظر إلى وجهها المتجه إلى أعلى، وعلامات المتعة على وجهه، ولكنها سرعان ما تبدلت بملامح متجهمة، وأصبح مرعباً بما فيه الكفاية. أحست بقلبها ينبض بشدة، متألماً في صدرها، وعيناه الداكنتان تلمعان بتحدٍ كثيف عندما واجه صمتها، بصمت.

«يا سيد ستيوارت، سوف أغادر عندما أكون جاهزة وليس قبل لحظة من ذلك، ولا أحد.» وأكدت: «حتى أنت، يجعلني أعدل عن رأيي.» أخبرته ذلك ببرودة. بريق الضوء الذي ظهر في عينيه لفترة وجيزة، عند سماعه هذه الكلمات

كان بارداً كالفولاذ، وجعل جيمسي ترتعد بطريقة لا إرادية.

«عليك أن تعملي جيداً لتتذكري يا، آنستي.» وتوقف قليلاً عن قصد قبل أن يتابع: «أنا أملك العقار الذي تقيمين فيه. وأنت يمكنك المكوث فقط لأني سمحت بذلك.» أجاب بغضب مكتوم مصححاً معلوماتها. انتصبت جيمسي بشكل عدائي، وفكرت بغضب، لقد رفض أن ينكر اسمي وكأن اسم ماكدونالد سمٌ لشفتيه.

«آنسة ماكدونالد. إسمي ماكدونالد.» أخبرته بلهجة واضحة مع أنها كانت ثائرة وعيناها الخضراوان تشعان ضياءً. رفعت شعرها عن وجهها، بإيحاء من الإنزعاج وهي تكافح للسيطرة على أعصابها المشتعلة.

«إنه لمن سوء حظك.» أخبرها بصوت ساخر. بدا وجهه صارماً وفمه مشدوداً ومطبقاً. كانت جيمسي على وشك أن تجاوبه، لكن الضوء الذي لمع في عينيه، حذرها بأن تبقى صامتة. وبدلاً من ذلك حدقت به، ثم استدارت على عقبيها واتجهت خارج المحل. كان باستطاعتها أن تسمع طنين المحادثة التي بدأت للتو، وجنتاها تتوهجان احمراراً من الارتباك. هذا الرجل لا يحتمل، لقد فكرت به وهي عائدة إلى بيتها، وعقلها يلاحقها في وضع الخطط للثأر. كم تمنت لو كان باستطاعتها أن تتخلص من ثقله.

السماء مغطاة بالغيوم وبدأ الهواء البارد يلسع جسدها. أقفلت سحاب معطفها، إتقاءً للسعة الرياح، لكنها لم تكن تملك أي وسيلة للحماية من رذاذ المطر الغزير الذي بدأ يتساقط، أخفضت رأسها، وضعت ياقة معطفها حول أذنيها ولكن ذلك لم يفد أمام هذا المطر المنهمر. بدأت بزيادة

سرعتها عندما أخذ المطر بالتساقط، وسمعت صوت سيارة تتوقف بجانبها، لكنها لم تتوقف.

«ادخلي.» صوت أمرها بذلك، عندما فتح باب السيارة بجانبها. حدقت جيمسي بتردد ووجدت من تكره، روس ستيوارت يصرخ: «أسرعي وإلا غرق كلانا بالماء.»

«اعتقدت أن فكرة إغراقي بالماء تسرك.» أجابت من دون أن تبادر بدخول السيارة.

زمجر غضباً وقد بدأ صبره ينفد: «قلت، ادخلي.» وجيمسي غير الراغبة بإثارة غضبه لغير ضرورة، طأطأت رأسها وتسلقت السيارة، الياقة فوق المعطف، هزت رأسها فتناثر الماء في كل اتجاه. «أوه، آسفة.» ضحكت بعدم ارتياح، وهي تتحسس شعوراً بالغضب المكبوت في داخله. والتفتت لتراه وهو يزيل قطرات الماء بازدراء من على كتفيه، بأطراف أصابعه، في محاولة إيمائية. لم يتفوه بكلمة، السكون دل على استنكاره لما حصل. أبقى عينيه ثابتتين على الطريق أمامه. هزت جيمسي كتفيها، لا مبالية، في محاولة أن تبدو غير متأثرة بسلوكه البارد، لكنها شعرت داخلياً بأن الصمت كان مخيفاً. نظرت خارج النافذة إلى المطر المتساقط. بدت الطريق خالية ومساحتا زجاج السيارة تضربان في الاتجاهين المتعاكسين، بشكل منتظم بما يكفي لأن يجعل الطريق أمامهما مرئياً بوضوح. والجبال المحيطة أصبحت مغطاة بالغيوم التي تنذر بالسوء، سارقة الجاذبية التي يتمتع بها الريف.

قاد روس السيارة على الطريق الضيقة والمتعرجة الموصلة إلى البيت بتؤدة وطمأنينة، على الرغم من سوء

أحوال الطريق. أطلقت جيمسي صرخة رعب عندما وصلت ورأت ان قطعة الورق المقوى التي وضعتها على النافذة أصبحت مبتلة ووقعت بعيداً. ورأت الستارة تتجرجر على الأرض، بفعل الريح الشديدة وتخبطها على الجدار الحجري الرمادي. لقد صارت مبتلة بالماء، سوداء ومتسخة.

«أوراقي!» صرخت جيمسي، ومن دون انتظار لوقوف السيارة، فتحت الباب وقفزت إلى الخارج، وبدأت تجري بأقصى سرعتها نحو البيت. سمعت روس يتمتم بالشتائم لكنها كانت منشغلة البال فلم تنتبه إليه. فتحت الباب واندفعت إلى الداخل. لقد كانت كارثة، الأوراق متناثرة في كل مكان بعضها ممزق والآخر مبتل، كانت في فوضى. الساعات التي قضتها جيمسي وهي تعيد ترتيبها وتصنيفها ضاعت الآن. تآوهت جيمسي عندما أدركت أن عليها أن تعيد عمل ذلك، وأرخت كتفيها علامة الانهزام.

«تبدو هذه الفوضى وكأنها أتت من الجحيم.» شهق روس وعيناه الحادتان تقومان بتقييم سريع للوضع. «كما ترى، يا سيد ستيوارت.» أجابته بإيجاز، وشعرت فجأة بالاحباط، إنها تعلم أنه يتأملها بإعجاب.

«سوف تأخذ وقتاً لاعادة ترتيبها. هل الأمر سيء لهذه الدرجة؟» تساءل، متجاهلاً صوتها الحاد، بينما كان ينظر إلى الأوراق المبعثرة.

«بالنسبة لي، هو كذلك، فأنا أريد معرفة الحقيقة.» أجابت جيمسي وهي تجثو على ركبتيها وتبدأ في التقاط المستندات بقلب مثقل.

راقبها وهي صامتة لبضع لحظات. «الحقيقة قد لا تكون لذيذة المذاق، كما تتخيلين.» أخبرها ذلك ببرودة، وضاقت حدقتاه وهو يرمقها.

استدارت بسرعة ونهضت. «عليك أن تعمل جيداً لتتنكر ذلك، يا سيد ستيوارت، فقد تجبر أنت على أكل مثل هذه الفطيرة العفنة، طبعاً، اتصور أنك لم تذقها من قبل. ولا يوجد أي شك، في أنها ستكون غير لذيذة المذاق.»

برق الغضب في عينيه، ثم لوى شفتيه بابتسامة متهكمة. أرخى يديه ببطء، وجيمسي تراقب ذلك بسحر وانفعال. وضع أصبعه بلطف على أسفل وجهها. «إن وفائك سيزيد من قدرك، إن لم تضلّلي.» قال مستهزئاً بهدوء، ونبرة صوته تنم عن تهديد وأصبعه يرسم خطاً على أسفل وجنتيها، كما شعرت أن حركته تنم أيضاً، عن تهديد أرعبها.

«وتبقى الأمور على حالها حتى نكتشف ما خفي، إذ أنني حالياً لا أملك أي معلومات عن جدي الأول، لكنه يبدو واضحاً أن آل ماكدونالد وآل ستيوارت لم يكونوا أحسن الأصدقاء.»

أبدت ابتسامة من الايحاء، بأن العداء يبدو مستمراً. اكفهر وجهه، قطب حاجبيه بصورة خاطفة.

«يبدو أنك قد أمضيت وقتاً طويلاً أثناء قدومك من بلد بعيد. وتلك مفاجأة لا تتكرر دائماً، لكن الناس في دنكلي يعيشون منذ أجيال والعار الذي ألحقه بنا آل ماكدونالد لن ينسى.» قال مؤكداً وهو يدفع خصلة من شعره عن وجهه.

«ما هذا العار؟ ما هو الذنب الذي ارتكبناه؟»

«إنسِ ذلك، إنه لعمل سيء، أن نقلب في الماضي. من

الأفضل ترك بعض الأمور على حالها.» نهرها بغضب وحدق بها مغتاظاً.

«مهما حدث، فأنا أؤمن بأننا كنا أبرياء، وسوف أثبت ذلك.» ردت جيمسي، وعيناها محملقتان واندفعت الألوان إلى وجنتيها. نظر إليها باحتقار وكأن مغامرتها مضيعة للوقت، وهز كتفيه القويتين بلا مبالاة.

«إذا لم تختي ذاكرتي، فقد طلبت منك عدم ذكر اسمك. ألم أفعل ذلك؟» سأل ببرودة وبنفس نظرة التحدي التي ارتسمت في عينيه من قبل.

«إنه طلب صعب.» ذكرته بانفعال: «وكأنه أكثر من أمر.»

رفع حاجبيه ساخراً. تشدق قائلاً: «إنه لمن الأفضل لمصلحتك أن تأخذي بملاحظاتي.»

«لمصلحتي!» نطقت بشدة: «أنا لا أخجل من أجدادي، أنا أفتخر لكوني من آل ماكدونالد.» موجة من الغضب اجتاحت وجهها، الذي تغير لونه، وعينيها اللتين تتطاير منهما الشرر. هز كتفيه وعيناه الرماديتان تنظران بلا مبالاة، وبحدة ثاقبة.

«تفاخري يا عزيزتي.» قال بصوت هادىء رزين.

«اصمدي بثبات، قبل السقوط.» ضحك من أعماقه، بينما جيمسي تحملق فيه.

«إذاً أقترح، يا سيد ستيوارت، أن نتجه إلى جحيم واحد ونسقط فيه.» انفجرت غاضبة. اخفض روس عينيه وهو يخطو نحوها، باستخفاف، مقترباً منها بحذر. شعرت جيمسي برعشة الخوف تسري في عمودها الفقري ولكنها انتصبت واقفة.

«كما حاولت أن أشرح لك سابقاً، فإن الناس لن يسرهم وجودك. إنه لمن الحكمة أن تبقي اسمك سراً. إني أنصحك.» ضاقت عيناه أثناء كلامه.

«معظم الناس أضحوا عارفين، بعد الذي حصل هذا الصباح وسيتكلمون عما حصل صباحاً، والبقية منهم سيعرفون قريباً ما فيه الكفاية.» قالت بكبرياء، مدعية الثقة بالنفس على الرغم مما تشعر به في الواقع. «إنه من الأفضل أن أذهب للإقامة في فندق.» أضافت، ولديها الرغبة في عدم البقاء هنا. ربما يصبح أهل القرية مزعجين إذا عرفوا بأنها وحيدة هنا. رفع حاجبيه.

«أريدك هنا، حيث تبقين تحت أنظاري ومراقبتي. أنا لا أثق بك. لا أريدك أن تسألي الناس وتؤذي نفسك. لن تذهبي إلى أي مكان آخر.»

«لا تستطيع إرغامي على البقاء...» بدأت جيمسي الكلام محاولة عدم إظهار موجة الهستيريا التي انتابتها.

«ألا أستطيع؟» تصلب وجهه وهو يراقبها بهدوء. «لا تستخفي بي. إنني أعمل دائماً للحصول على ما أريد.» نظرت إليه بمرارة. «حتى لو كان ذلك بالقوة.»

أومأ برأسه، فيما كان شعره يتحول من جانب إلى آخر. وجه إليها ابتسامة ذات مغزى، ورفع حاجبيه. «أنا متأكد من أن ذلك غير ضروري، ولكنه شيء أستطيع الاستمتاع به.» قال ذلك وهو يمسك بشعرها.

تجمدت جيمسي وانفجرت غاضبة لاقتراحه. «قد تكون المتعة لوقت قصير، ومن جانب واحد، يا سيد ستيوارت.» نطقت بهذه الكلمات، مكورة يديها الصغيرتين على شكل

قبضتين غاضبتين، وهي تقاوم الرغبة في إظهار مهارات الكاراتيه التي تعلمتها.

«إنكِ تستخفين بي، إن لدي سحراً مخبأ.» تشدق بهذه الكلمات والتهديد بصوته، مما جعل الدم يجري في عروقها. إنها وحيدة وفي بلد غريب ويبدو أنه يمتلك جميع الأوراق.

«سيد ستيوارت، إن براعاتك مخبأة جيداً وتحتاج إلى حفارة ميكانيكية لاكتشافها.» ردت سريعاً. ضاق فم روس، ووجه إليها نظرة انتقادية، فيما كان يقف أمامها مباشرة مما جعلها تشعر أنها عرضة للهجوم، في الوقت الذي نظر إليها نظرة تكبر وعجرفة. بدا كأنه عدو، من خلال التعابير التي ارتسمت على وجنتيه وفكيه.

«إن لسانكِ حاد جداً، لدرجة أني استغرب كيف أنكِ لم تؤذي نفسكِ.» علق بطريقة جافة.

عبست وهي تفكر في ملاحظته. «إنه سلاح مفيد ولا استعمله إلا في حالة الدفاع عن النفس.» ردت وهي، تميل برأسها إلى الوراء وتثبت عينيها الزمرديتين عليه. ابتسم من غير دعابة، واقترب منها قليلاً، حتى داعبت رائحة عطره حواسها.

«عما تدافعين بمثل هذه القوة؟» قال مستهزئاً. شعرت جيمسي بقلبها ينبض سريعاً لتقييمه الواضح لأفكارها، وقد توردت وجنتاها. نظرت إليه نظرة غضب.

«أنا لا أحب موقفك.»

«الا يعجبك ذلك؟» أجاب بازدراء وابتسامة متعة ترتسم على فمه.

«لا، لا أحب ذلك. هل تتلطف بالذهاب؟» قالت وعيناها

تشعان بالغضب نحوه. فرد حاجبيه وأومأ لها بابتسامة عذبة.

«ألا تريدين مني المساعدة؟» نظر بسرعة إلى الفوضى المحيطة، بينما يعبث بالأوراق، محاولاً إزعاجها.

«لا أريد منك شيئاً، يا سيد ستيوارت.»

«إنه مثير للشفقة، لأنكِ بالتأكيد تملكين شيئاً أريده.» هدد بنعومة وهو يقترب أكثر وفجأة لفّ يديه القويتين حول جسدها. حاولت التملص منه لكنه أحكم قبضته. حملقت فيه بغضب، مدركة العنف الذي يسري في كل عرق من جسمه القوي المتين.

«أنت لا تخيفني.» نطقت جيمسي، بينما تقاوم جاهدة للإفلات من بين يديه، على غير فائدة. لوى فمه بابتسامة شريرة. «ألا أخيفك؟» تساءل كأنه يريد ارباكها، عيناه السوداوان تنظران إليها. راقبها عن قرب، للحظة، أحست جيمسي بمعدتها تنقلب رأساً على عقب نتيجة لمسته. توردت وجنتاها، بينما تزايدت نبضاتها على نحو غير مريح وأحست في جسمها بوخز خفيف وحرارة.

«إذا لم تتركني سوف أصرخ.» حذرته.

«اصرخي بأعلى صوتكِ وكما يحلو لكِ، فإن أحداً لن يسمعك.» تشدق بكسل.

«دعني أذهب.» طلبت نلك، دافعة إياه، عنها بكل ما أوتيت من قوة.

تراجع ببطء، مراقباً إياها بمتعة، هزّ كتفيه القويتين بلا مبالاة.. حدقت جيمسي به، محاولة الظهور هادئة، بينما كانت متوترة في داخلها كالأسلاك المشدودة.

اتجهت نحو الباب وفتحته على مصراعيه.

«شكراً لتوصيلي إلى البيت.» قالت بحدة وعيناها تنفجران غضباً. هزّ كتفيه ثانية وبادرها بابتسامة تهديد. تبعها إلى الباب، فاتر الهمة كقطة تتسلل، حركاته بطيئة وخطرة، كل خطوة تجري بدقة وانتباه، معززاً شعورها المتزايد بالخطر. حملقت جيمسي به، اتسعت عيناها عندما وقف بقربها ورفع يده وداعب بأطراف أصابعه شفتيها المزمومتين.

«تبدين أفضل بكثير عندما تضحكين.» أخبرها بهدوء، وصوته يتهدج بضحكة مكتومة.

وقفت جيمسي أمام الباب تراقبه وهو يقود سيارته بعيداً. بدأ الليل في الهبوط، السماء تتلون بلون الرصاص، وانهمر المطر بشكل متواصل. ارتفعت المستنقعات حولها، لا يفصلها عنها إلا الجدران الرمادية. بدت وحيدة كئيبة، شعرت فجأة أنها وحيدة إلى أبعد الحدود، وأعصابها متوترة قليلاً. أدارت المذياع ولكن الموسيقى لم تبدد رعبها الذي بدأ يتنامى منذ قابلت روس ستيوارت. فجأة سمعت تحركاً وضجة في الخارج، قفزت جيمسي ورأسها يدور. هل عاد أدراجه؟ استغربت، وانتابها شعور من الهلع.

حدقت من النافذة بقلق، نبتة مقلوبة رأساً على عقب، ألقاها الهواء فوق الممر المفروش بالحصى. ابتسمت جيمسي براحة، ثم سمعت صوتاً آخر، نقرات ناعمة على الشباك، وجمدت. لقد عاد ثانية، وبجرأة أكثر. نظرت مذعورة في الغرفة باحثة عن سلاح يحميها، تسلحت بالقضيب الذي يستعمل لاذكاء النار في الموقد، اقتربت من

النافذة بخفة كالفأرة. حدقت خارجاً وقلبها ينبض بشدة ورأت وجهاً صغيراً يحشر نفسه على زجاج النافذة، أطلقت صرخة تعجب.

«أرجوكِ، أرجوكِ، دعيني أدخل.» ناشدها الصوت الخفيف. وقفت جيمسي مشلولة، محملقة في البنت الصغيرة غير مصدقة.

الفصل الثاني

أسرعت جيمسي نحو الباب، ورغبتها في المساعدة تفوق الأخذ بأسباب الحذر. فتحت الباب على مصراعيه بقوة، وعصفت الرياح داخل البيت. النور المنبعث من غرفة الجلوس ينير الممر، وتحت الشرفة الصغيرة كانت تقف فتاة منكسرة الخاطر. شعرها أسود قصير، مثلبد، منفوش المنظر وتغطي قسمات وجهها الرقيق بقع من الوساخة. عيناها سوداوان ثاقبتان، تخفف من حدتهما الدموع التي لم تذرف والتي تبدو كأنها تتفجر في داخلهما. تحركت عاطفة جيمسي، أخذت البنت بيدها وقادتها إلى الداخل.

«ادخلي سوف تتجمدين لدرجة الموت إذا بقيتِ في الخارج.» صاحت جيمسي وهي تلاحظ القميص الرقيق وسروال الجينز الممزق اللذين ترتديهما. دخلت البنت إلى البيت، خافضة عينيها وكأنها تكره النظر إلى جيمسي.

«ما إسمك؟» سألتها جيمسي، وهي تجر كرسياً باتجاه المدفأة.

«ميرلي.»

«ميرلي؟» رددت جيمسي، غير مصدقة، ثم صمتت للحظات، تراقب نظرات الغضب المشعة من وجه البنت.

«إنه اسم غير عادي.» ابتسمت جيمسي وهي مقتنعة بأنها لا تخبرها الحقيقة.

«كذلك جيمسي.» قالت الفتاة وتبدلت تعابير وجهها المتجهم إلى نظرة انتصار.

«لقد سميت على إسم والدي، جيمسي، هذا الإسم في عائلتنا منذ فترة طويلة.» دافعت جيمسي عن اسمها فيما تضع إبريق الشاي على الموقد. استدركت بدهشة: «كيف عرفت إسمي؟» ولكن الجواب الوحيد الذي وصلها كان ابتسامة عادية. «هل تحبين تناول شراب ساخن؟» عرضت عليها.

«لقد اصبت، أنا جائعة جداً، لم آكل منذ يومين.»

«ربما تفضلين أن تأخذي حماماً أولاً، يوجد الكثير من الماء الساخن.» عرضت عليها جيمسي، محاولة أن تكون لبقة معها.

«نعم، أرجوكِ... لم أستحم منذ يومين أيضاً. ولم يكن حماماً بالمعنى الصحيح.» أضافت بسرعة بعد أن رأت علامات الذهول على وجه جيمسي.

«إذاً، إنه وقت طويل.» ضحكت جيمسي. ورافقتها إلى الطابق العلوي، شعور دافىء من الأخوة تسرب إلى نفسها. وقفت مرتبكة مكرهة تنتقل من رجل إلى أخرى بينما جيمسي تملأ المغطس، واضعة في داخله بسخاء كميات من صابون الحمام والزيوت، لدرجة أن الهواء امتلأ بالعطر. التفتت إلى ميرلي التي كانت لا تزال مرتدية ملابسها. «تعالي الآن، إنه جاهز، أدخليه.»

هزت ميرلي رأسها وعلا وجهها الغضب. إن فكرة خلع ملابسها أمام غريب لم ترق لها. «سوف أخلع ملابسي عندما تذهبين.» أخبرت جيمسي بجدية، وابتسمت جيمسي وهزت رأسها موافقة.

«سوف أحضر لك بعض ثيابي، ربما، رداء نوم، سيكون مظهره لائقاً ولو كان فضفاضاً، فأنتِ لست أصغر مني بكثير على أية حال.» أضافت وهي تغادر الحمام.

نقبت جيمسي في خزانتها وهي لا تزال تتحدث بشكل مستمر، من طرف واحد. ولما لم ينبعث أي صوت من الحمام، استغربت جيمسي وبدأت تفكر بالدخول إلى الحمام.

«هل أنت في الحمام؟» نادت بقوة. الجواب الوحيد الذي تلقته هو صوت المياه المنسابة.

ظهرت ميرلي بعد قليل، ملفوفة بمنشفة قطنية بيضاء. بدت رائعة، وجهها لطيف وقسماته رقيقة، وقد ظهرت محاسنها بعد أن استحمت. عيناها القاتمتان الكبيرتان تظهرانها بريئة وطرية العود، ولكن فيهما قوة، وسلوكها يعطي فكرة خاطئة عن عمرها الصغير. شعرها لم يتغير كثيراً ما عدا الخصل المبللة التي انسدلت على وجهها.

«لقد أحضرت لكِ بعض الثياب، فأعطيني ثيابكِ لأضعها في الغسيل.» أمرتها جيمسي، ونزلت إلى الطابق السفلي لتحضر لها بعض الطعام لتأكله.

«هاك البعض منه، أعددته قبل قليل.» قالت جيمسي وهي تضع صينية الطعام على ركبة ميرلي. إنها تأكل بهدوء ويبدو عليها جوع شديد ولم ترفع رأسها عن طبق الطعام.

«هل تفضلين تفاحة، أو بعض البسكويت والجبنة؟»

«كلا، شكراً لكِ.» أجابت ميرلي وهي تبتسم بامتنان لجيمسي.

«من أين أنتِ؟» سألتها وهي مصممة على معرفة المزيد.

«إني هاربة. لقد تركت مدرستي الداخلية لأن الجميع بغيضون جداً.» تشنجت ميرلي. وهبت جيمسي واقفة ووضعت يدها على كتفي ميرلي المرتجفة. «أرجوكِ لا تعيديني إلى المدرسة.» قالت وهي تنتحب، وذاب قلب جيمسي عندما استرجعت ذكريات طفولتها التعيسة. احتضنت جسدها الطري إلى أن جمدت دموعها.

«أنتِ الآن هادئة، فربما ينبغي لكِ إخباري المزيد.» سألت جيمسي، مستقرة في مكانها لتستمع إلى قصة ميرلي.

«أتيت إلى هنا لأننا غالباً ما نقضي عطلاتنا فيه، وغالباً ما يكون فارغاً في هذا الوقت من السنة، لذا فكرت أن بإمكاني البقاء ليومين هنا.» قالت ذلك موضحة.

«إذاً أنتِ من كسر الشباك؟» سألت جيمسي قاطعة حديثها.

«نعم، كنت أحاول. الدخول ولم يخطر ببالي وجود أحد هنا حتى أضيء المكان وفتحتِ الباب. كنت مرتعبة.» بدت أسنانها البيضاء الجميلة.

«حسناً، أنا كنت كذلك.» أجابت جيمسي، معجبة بجرأة الطفلة. وفكرت بالمشكلة. ماذا عن عائلتها... المدرسة. سيكون أهلها قلقين عليها؟ وكأن ميرلي قرأت أفكارها وعرفت ما يدور في رأسها، وفجأة بدأت ميرلي التكلم بإفاضة عن عائلتها.

«أمي توفيت وكنت دائماً عبئاً على والدي. إنه منشغل جداً ولا يزعج نفسه بالسؤال عني.» قالت: «لذا فإنه يمكنني البقاء معك، على الأقل لحين عودة والدي من رحلته. فقط حتى نهاية الأسبوع القادمة؟» توسلت إليها. ولكن جيمسي لم تقتنع بكلامها، وحاولت التركيز بتقطيب حاجبيها.

«ولكن بالتأكيد عليّ أن أعلم أحداً؟»

«على كلٍ لقد أعلمت المدرسة بأنني سأبقى مع عمتي.» أجابت بسرعة.

«وهل صدقوك؟» تساءلت جيمسي بفضول. تغير صوت ميرلي بسرعة وقلدت صوت جيمسي.

«أكون مسرورة لأستضيف ابنة أخي لبضعة أيام.» قالت بصوت ينم عن اقتناع. ضحكت جيمسي. إنها تعاني من الوحدة، وقد تجد في ميرلي صحبة مثالية لمدة يومين.

«حسناً، ولكنني أعتقد أن من الأفضل إخبار السيد ستيوارت بأن عندي ضيفاً.» أجابت جيمسي، غير متأكدة من كيفية ردة فعله، وقد لاحظت انفعال ميرلي السريع عندما نكرت اسمه.

تلاشى لون وجهها وظهر الخوف في عينيها. ثم هبت واقفة، واوقعت الصينية والطبق من على ركبتها فتكسرا على الأرض.

«لا، لا تستطيعين إخباره، عديني بأن لا تدعيه يعرف.» توسلت بانفعال شديد. وأخاف الذعر في صوتها، جيمسي.

«حسناً، لن أفعل: أنا متأكدة بأنه لن يمانع، على كل حال.» أعادت جيمسي التأكيد، ثم سألت: «هل تعرفينه؟»

«نعم، أعرفه، وأعرف شعوره، إنه عنيف كأسد. كلا، يا آنسة، أعتقد أنه من الأفضل أن لا يعرف شيئاً. إنه سيصمم على إعادتي إلى المدرسة، فهو ذو عقلية رجعية كما تعرفين.» قالت بوقار.

اومأت جيمسي رأسها موافقة. كم هو نموذجي وبعيد عن الواقع. تصرفاته تنتمي إلى فترة أخرى من الزمن، فكرت

جيمسي بذلك، مستعيدة أفكاره عن شرف العائلة، كما تذكرت اطباعه، والنظرات القاتمة في عينيه توحي بالكثير من الحذر بما فيه الكفاية. ارتعدت فرائصها لمجرد التفكير فيه، وحركت النار المشتعلة في الموقد من الليلة السابقة.

«هل تحبينه؟ أعني أنه توقف هنا اليوم، أليس كذلك؟» تساءلت ميرلي. وشعت عيناها بلهو. قطبت جيمسي حاجبيها وشحب لونها.

«بالطبع لا. وكي أكون صادقة، أعتقد أنه الشخص الأكثر تزمتاً، رأيته في حياتي.»

انفجرت ميرلي بضحكة مدوية تنقل صداها من مكان إلى آخر ببهجة. وأتت قهقهتها عفوية، واصلت جيمسي الضحك معها. قضت كلتاهما الساعتين اللاحقتين يمتعان نفسيهما، تتكلمان عن مواضيع مختلفة. على الرغم من افتقارها إلى الحب والعناية، كانت ميرلي مدهشة في التكيف وذات تعليم عال وجيد وقد كان من السهل على جيمسي الإستمتاع حقاً بصحبتها.

أنزلت جيمسي ميرلي في غرفة صغيرة قابعة في نهاية البيت، وجعل صوت تنفسها اللطيف جيمسي تشعر بالأمان والاطمئنان. إنها تكره أن تكون وحيدة، لقد فقدت والديها في حادث طائرة عندما كانت في الثامنة مما أثر في عواطفها بشكل مريع. ثم اقامت مع عمتها لوقت قصير ولكن زوجها لم يعاملها معاملة الأطفال، لذا أرسلت إلى أقارب آخرين وأمضت السنوات الأربع اللاحقة تنتقل من عائلة إلى أخرى ولم تعرف الاستقرار إلى أن ذهبت إلى جدتها لوالدتها. وهناك عرفت طعم

السعادة، مع أنها تعيش وحيدة ولا تعرف أحداً يقاربها في السن لتتواءم معه. وبعد ذلك توفيت جدتها فلم يتبق لها أحد، ونالها الأذى كثيراً. طرحت جيمسي هذه الأفكار جانباً واستغرقت في راحة مطمئنة، وصوت تنفس ميرلي يدغدغ بلطف رغبتها في النوم وعقلها يستعيد أحداث اليوم، خاصة، التهديد من روس ستيوارت.

«جيمسي، جيمسي، استيقظي!» صرخات ميرلي الملحة قطعت نوم جيمسي. تأوهت والتفتت تحاول طرد الازعاج الذي أصابها ولكن ميرلي كانت تصر بإلحاح.

«جيمسي، جيمسي، أسرعي، استيقظي. إنه هنا.»

«من؟» تمتمت جيمسي من تحت الغطاء وهي شبه نائمة.

«روس، إنه يقرع الباب منذ وقت طويل، أسرعي أرجوك، قد يدخل إلى هنا.» ناشدتها ميرلي خائفة من أن يكتشف وجودها. استيقظت جيمسي على الفور.

«روس؟ روس هنا؟ لماذا؟ انظري إلى الوقت، لم تتجاوز السابعة إلا قليلاً.» تأوهت جيمسي غير مصدقة، تلتمس طريقها وهي مرتدية روب النوم.

«إنه هنا؛ إنه يعرف أني هنا.» صاحت ميرلي وهي تكاد تبكي: «سوف يكون مستاءً جداً، أرجوكِ مساعدتي؟» ناشدتها. عانقتها جيمسي، ووعدتها بالمساعدة ودفعتها إلى الفراش.

«هراء، إنه لا يستطيع أن يعرف أنك هنا. لمجرد أن يعتقد أنه يعرف كل شيء لا يعني أنه يعرف ذلك.» قالت وهي تفرش الأغطية فوق ميرلي.

أسرعت بعدها إلى الدور السفلي.

«ماذا تريد؟» تساءلت وهي تفتح الباب وواجهت روس بنظرة غضب. «هل تعرف الوقت؟»

«طبعاً؛ عندي ساعة.» ابتسم ابتسامة عريضة، أيقظت جيمسي تماماً.

«حسناً، ماذا تريد؟» أجابت ببرود. نظر إليها بابتسامة كسولة، جعلت قلبها ينبض بتسارع.

«هل صباحك دائماً نكد كهذا؟» تساءل وهو ينحني إلى عضادة الباب، وهذا الموقف أخفق في إخفاء شعوره العدواني. شعرت بفقاقيع الغضب تغلي في داخلها.

«ماذا تريد، يا سيد ستيوارت؟» سألت بصوت فيه أسى وهي تشد روب النوم أكثر على جسدها النحيل. اسودت عيناه أكثر فور أن ادرك الغضب في صوتها.

«لقد أتيت لأعمل شيئاً في النافذة، سوف تبقين.» أعلمها روس بصوت متسلط وهو يمشي داخل الكوخ بخطوات سريعة.

«اعتقدت أن رامسي هو من يعمل التصليحات؟» سألته، إنها لا تريده هنا. ميرلي موجودة في الطابق العلوي والشعور بالقلق يزداد في داخلها.

«في العادة، أجل لكنني أريد متعة هذا العمل.» أشار ببرودة، متجاهلاً نظرات الغيظ التي رمقته بها جيمسي وانطلق نحو النافذة كنمر يختال في مشيته.

تبعته جيمسي، مشحونة بالنقمة من سلوكه المتسلط. «يا سيد ستيوارت أكون ممتنة لك إذا عدت في وقت لاحق فأنا لم ألبس ملابسي بعد.» قالت بصوت بارد محاولة البقاء هادئة.

التفت نحوها وعيناه ترمقانها بافتتان واضح، وتجمدت جيمسي مع شعور بالكراهية.

«حسناً، ساري.» تشدق قائلاً، وانفرجت أسارير وجهه القاسي وابتعدت شفتاه عن بعضهما مظهرتين أسنانه البيضاء القوية وهو يبتسم، فيما دمها يغلي. «تبدين جذابة، بريئة.» علق بجفاف.

شعرت جيمسي باحمرار وجنتيها، بدت مرتبكة وغاضبة: «كم يستغرق ذلك من الوقت؟» تساءلت محاولة تغيير مجرى الحديث.

هز روس كتفيه بلا مبالاة. «علىّ أن آخذ المقاسات وأعود بعد أن أحصل على الزجاج.» التفت إليها رافعاً إحدى حاجبيه. «هذا العمل لن يأخذ وقتاً طويلاً، موافقة؟»

طأطأت جيمسي رأسها محاولة الظهور بأنها غير مبالية. «سوف أذهب لأرتدي ثيابي.» أشارت بكسل وهي تراقبه بحذر.

أرسل إليها شبه ابتسامة جعلتها تشعر بالغثيان. «هل تريدين أية مساعدة؟» سألها محاولاً مضايقتها وهو يتجه نحوها بحذر.

«لا بالتأكيد.» أجابته، وهي متجهة نحو الدرج. كانت تلهث عندما وصلت إلى الطابق العلوي، لكن ما كان الجهد هو السبب، كانت تهرب منه، هذه الفكرة بعثت الذعر في داخلها. شرحت الموقف لميرلي، التي بدت مستغربة جداً، لكنها كانت تود البقاء في السرير لحين ذهابه، عادت إلى سريرها تشعر بارتياح لأن جيمسي كانت يقظة.

شغلت جيمسي نفسها بترتيب أوراقها وملفاتها معيدة

تنظيمها. أبقت رأسها منحنياً نحو أوراقها محاولة إثارة غيظه، بالمقابل كان يبدو غير مكترث، ويدندن بأنشودة قديمة وبسيطة فيما كان يقوم باصلاح النافذة ببراعة، كان من الصعب انكارها عليه. كانت حذرة من وجوده، حملقت إليه لكن من دون نتيجة. ابتسم لها رافعاً احد حاجبيه بتهكم.

عندما انتهى من إصلاح النافذة أشعل النار. كانت جيمسي مستغرقة في عملها فلم تنتبه إلا وهو يضع أمامها كوباً من القهوة المعطرة. قفزت ونظرت بدهشة وابتسم بكسل واتسعت حدقتا عينيه وهو يستمتع بإخافتها. كرهت طريقة تأثرها به، لكن يبدو أنه شيء خارج عن إرادتها. أومأ بانحناءة تعجرف من رأسه وانسدلت خصلة من شعره الأشقر على وجهه.

«إنه لطف منك...» بدأت جيمسي الكلام وهي تنظر في أرجاء الغرفة.

قاطعها فجأة. «إنه واجبي، وعلى الرغم من كل شيء فأنتِ لا تزالين ضيفتي.» شرح ببرود.

«شكراً، على كل حال.» تمتمت وهي تنحني على شرابها وتتفادى نظرته الثاقبة.

تحولت الغرفة، فالنار المشتعلة ألقت وهجاً ورديا على الجدران البيج، وزادت من لمعان الأثاث الخشبي القديم المصنوع من السنديان. النافذة أصبحت جاهزة. الصباح لا يزال قاتماً، لذلك أشعل روس المصباح في الزاوية. إنه يبدو في الحقيقة جواً عائلياً رائعاً، وللحظات شعرت جيمسي بطعنة من الألم، لشعورها بأن الجو العائلي لن يعود أبداً.

لقد تذكرها كثيراً بمنزل جدتها في أمسيات الشتاء. لا بدّ أنني متعبة جداً، فكرت في قرارة نفسها، وشعرت بالدموع تفيض في عينيها فيما أحاسيسها تفتقد تلك الأيام السعيدة. كانت مستغرقة في الماضي بحيث لم تشعر بأن روس قد انحنى إليها.

«هل هناك خطأ ما؟» سأل بلطف، وبدا تعبيره البسيط، غريباً وشاذاً عن صوته المعهود. نظرت جيمسي، بسرعة نحوه وابتلعت ريقها، عندما قابلت عيناها عينيه. وللحظات قصيرة تمنت أن تغرق في أعماق هاتين العينين ولو للحظات.

«تذكريات، هذا كل شيء.» تنهدت بشكل مسموع قبل أن تتابع قائلة: «لقد دفعت لقاء هذه الرحلة من المال الذي تركته لي جدتي. من المفترض أن تكون هذه رحلة العمر ولكنها حتى الآن لا تبدو كذلك.» أضافت برقة وهي تهز رأسها بحزن.

«اسكوتلندا بلد جميل، خاصة منطقة برث شاير، عليك أن تمضي وقتاً أقل في الماضي وأكثر في الحاضر.» أخبرها. أومأت جيمسي رأسها غير مبالية.

«أعتقد أن عليّ أن أشاهد أكثر، ولكني...» تلعثمت لأنها لا تريد الكلام أكثر من ذلك.

«وحيدة ألستِ كذلك؟ هذا ما كنت تريدين قوله؟» تساءل وابتسامة صفراء تتلاعب على فمه.

«نعم.» أجابت جيمسي بحدة وعيناها تتحديانه. إنها لا تريد شفقته أو مساعدته. لقد اعتادت أن تكون وحيدة.

ثبت عيناه القاتمتان عليها بتركيز شديد وكأنه يبحث عن

روحها. ثم أشاح بنظره عنها واستدار وكأنه أدرك بأن أي عرض للمساعدة سوف يجابه بالرفض. وكانت جيمسي ممتنة. فمن الصعب أن يكون قضاء الوقت في صحبته ممتعاً. بدت أفكارها على وجهها. وقف بكسل مثل، النهر، وقوته ظاهرة، على الرغم من لباسه. أخذ طريقه نحو رفوف الكتب المتواجدة على طرفي المدفأة. تناول احد الملفات، وبتهتك غير مسؤول أفرغ محتوياته كيفما اتفق على الأرض. بدا شيئاً منافياً للأخلاق. وأخفقت محاولتها في إيقاف قهقهته المدوية. ابتسم ابتسامة عريضة، فجأة بدا سعيداً كما فعل عندما تقابلا في المرة الأولى. إنه رجل متعدد الأطوار، في كل مرة يكشف عن مظهر من مظاهر شخصيته. إن سقوط مجموعة من الكتيبات الملونة والمتنوعة على البساط المتعدد الألوان زاد من ابتهاجه.

«في الصيف، نادراً ما يكون هذا الكوخ شاغراً وأكثر الزوار يجدون هذه المعلومات مفيدة.» أخبرها وهو يجلس. بدأ ينظر إلى أحد هذه الكتيبات. بدا سلوكه استعراضياً، لكن طباعه الشبيهة بطباع الأسد، حذرت جيمسي بأن لا تثق به. فقطتها المدللة تبدو دائماً مرتاحة ومسترخية قبل الانقضاض على فريستها. جلست تراقبه وأشعة الشمس تسقط على وجهه وتجعله يبدو ناعماً ولطيفاً وفي الوقت نفسه خشناً وصارماً، أيهما روس ستيوارت الحقيقي؟ استغرقت في التفكير وهي تراقبه بافتتان هادىء. لقد رأت بنفسها جانبين مختلفين من طبيعته أحدهما ذو طباع جيدة وصادقة، الآخر شعرت برجفة وهي تفكر به، بارد ومتحجر القلب. وكأنه ادرك ما كانت تفكر

فيه، فرفع رأسه ونظر إليها. وشعرت جيمسي بموجة من الحرارة تلون وجهها الشاحب في الوقت الذي التقت فيه عيونهما.

«تعالي وألقي نظرة؛ ربما تجدين شيئاً يمتعك.» قال وهو ينظر إلى الملفات. جلست بجانبه وهي تشعر بشيء من الخجل، وبكسل التقطت أحد الكتيبات. ثبتت انتباهها على الكتيب، محاولة أن تصمد أمام نظراته المتفحصة. وبينما جلست القرفصاء بجانبه، أصبح مدركاً لوجودها ورائحة عطرها النفاذة تنبعث كرائحة النبات الأرجواني. عيناها الجميلتان الخضراوان وأنفها الصغير وزوجان من الشفاه الرقيقة، كل هذا سحره. خصل شعرها الأحمر المنسدلة على كتفيها كصفحة مصقولة من النحاس فيما تراقص اشعاع النار المنبعثة من الموقد على خصلات شعرها.

ادركت جيمسي أنه يراقبها وشعرت، بشيء من الخوف، عضت برفق على شفتها السفلى محاولة التركيز على الكتيبات التي بين يديها. اسكوتلندا تعتبر بلد التقاليد وتتمتع بكل خدمات وتسهيلات القرن العشرين. «لم يكن لدي فكرة أن هناك أشياء كثيرة للمشاهدة.» قالت وهي تنظر إلى الكتيبات بحماس أكثر: «لكنني أفضل الجمال الطبيعي. ليست لديك فكرة عن أهمية السفر. بالنسبة لي، أوستراليا ليست خضراء سوى لفترة شهرين من الوقت، وفيما تبقى هي مكان خليط من الأصفر والبرتقالي.»

«أليس في ذلك جمالاً أيضاً؟» تساءل رافعاً حاجبيه.

«طبعاً!» دافعت جيمسي. «ولكن هنا تجد الكثير من الألوان والمساحات الخضراء. والأنوان الموشحة جميلة.

أليس كذلك؟» تساءلت بلهفة مستغربة. هل اعتقد أنها غبية لأنها تفاعلت بقوة؟ هز رأسه موافقاً بهدوء، وعيناه الداكنتان تشعان بالمتعة وهو يراقبها. وبقيا يناقشان مواضيع مسلية. أما في الخفاء فإن الكلمات المبطنة أحدثت تياراً من الحساسية والخطر. أحست جيمسي بانزعاج غريب. وقد كان كلاهما مدركاً للآخر، شاعراً بكل حركة من حركاته.

اقترب وقت الغداء وأدركت جيمسي فجأة، كم تأخر الوقت لأنها شعرت بالجوع الشديد. نظرت إلى روس، لا بدّ أنه جائع أيضاً. هل تعرض عليه الغداء؟ فكرت بحذر، وهي تفكر بالمسكينة ميرلي الموجودة في الطابق العلوي. عرضت عليه الغداء معها، وهي تتوقع الرفض، لكنها فوجئت عندما قال: «شكراً لك، إنه لطف منك.» ثم أردف:

«ماذا ستعدين؟»

أجاب بإخلاص لكن كان هناك شيء ما بابتسامته، النور الخطر الذي تألق من عينيه جعلها لا تثق به.

«عندي خبز طازج ما رأيك ببعض الحساء والسندويش؟» عرضت ذلك وهي تبعد شعرها عن وجهها وتحدق إليه.

«هذا جيد. سوف أجمع بعض الخضراوات من الحديقة.» قال ذلك وهو يقف على قدميه ومدّ يده نحوها ليساعدها على الوقوف. وقفت بخفة، أدهشت كليهما. قطب حاجبيه بسرعة خاطفة واسودت عينيه.

«ساكون في الخارج.» قال بلباقة واستدار بسرعة نحو الباب ومشى إلى الخارج.

شغلت جيمسي نفسها بالمطبخ وروس يعود من آن لآخر، ليضع رزمة من الخضار الموحلة على الطاولة. بعد قليل كان لديها مقلاة من الحساء تغلي على النار ورائحة عصارته المنبعثة جذبت روس للدخول.

«لن أخبرك ثانية!» صاحت بمزاج مرح، بينما كان روس يدخل الباب ثانية، حاملاً كتلة من الوحل في حذائه. رمت له منشفة بمزاج اصابت الهدف بدقة أكثر مما توقعت. غطى القماش الرطب وجهه وغمغم محتجاً. تجمدت جيمسي، غير متأكدة من كيفية ردة فعله، التي اتت سريعة خاطفة، وبحركة رشيقة كان إلى جانبها. أمسكها بشدة من خصرها وها هي تحاول الإفلات منه من دون جدوى، انزلقت على الأرض الموحلة. كان قلبها ينبض بسرعة وقوة، لا بدّ أنه يشعر بها. رفعت عينيها وتوقف الضحك على الفور. تجمد كلاهما، غير قابلين للحراك، ثم ابتعد عنها بسرعة.

«الحساء جاهز.» أعلنت جيمسي وهي تجفف يديها بالمنشفة المقطعة لتخفي ارتباكها. صبت الحساء الساخن في الأواني الخزفية التي كانت موجودة على الطاولة. كانت الوجبة على الرغم من بساطتها، جيدة المذاق، فجميع الخضار كانت طازجة من الحديقة. المائدة تحتوي الأعشاب، ورغيف القمح الذي أحضرته صباح الأمس وقطعته قطعاً كبيرة، كما أعدّ روس الكثير من السلطة الطازجة. تناولا الوجبة بهدوء، كانا مستريحين جداً عندما قرع الباب. أجابت جيمسي.

«إنه لك.» نادت وهي عائدة باتجاه المطبخ. وبدأت بغسل

الأطباق. انتهت من تجفيفها عندما عاد روس وهو يبدو شاحباً وقلقاً.

«ما الخطب الذي حصل يا روس، ما هناك؟» سألت بقلق، ولاحظت التوتر البادي على وجهه. غرق في الكرسي ورأت الألم والقلق واضحين في عينيه الداكنتين.

«إنها سارة؛ لقد هربت.» قال ذلك بحذر. نظرت إليه جيمسي بشحوب.

«سارة؟» كررت جيمسي. أحنى رأسه وهو يتنهد وأغرق وجهه في كفيه.

«أختي الصغرى.» كانت تدرس في مدرسة في فرنسا. لقد اتصلوا بي هاتفياً الآن ليخبروني بأنها هربت.»

«أوه!» لهثت جيمسي. «كم هو مرعب! ماذا ستفعل بحق السماء؟»

«لا شيء.» قال بصوت بارد ولهجته تدل على أنه يغلي من الداخل: «لا شك بأنها سوف تعود، لقد فعلتها مراراً.»

«ولكنك لست متأكداً.» اعترضت جيمسي. «عليك إخبار الشرطة.»

رفع روس رأسه بينما كانت تتكلم وعيناه تلمعان: «كلا إنها مسألة عائلية.» قال ذلك بصوت مرتفع. ذهلت جيمسي من تصرفاته، أصبح بارداً جداً وفاقداً الاحساس. قطبت حاجبيها. لماذا يدعي أنه مختلف عن غيره بينما يظهر ببساطة ووضوح أنه يعاني من المشكلات؟ وضعت جيمسي إبريق القهوة الطازجة وجلست إلى طاولة المطبخ في مواجهته.

«كم عمرها؟» سألت بهدوء وعيناها الناعمتان تدلان

على الشفقة، صوتها هادىء ومقنع. رفع روس رأسه، عيناه داكنتان لا يمكن سبر غورهما.

«ستكون في الثامنة عشرة بعد شهرين.» قال وهو يعض على الكلمات.

«إنها امرأة يافعة إذن، وليست طفلة.» قفزت جيمسي، خائفة، بينما يد روس تنقر على الطاولة، بغضب.

«يجب أن تقولي ذلك! كم عمرك؟ عشرون، إثنتان وعشرون؟ لا شك، أنت تظنين بأنك ناضجة.» قال بشكل لاذع.

«إنني في الخامسة والعشرين.» أجابته بجفاف: «وفي الوقت الذي بلغت فيه الثامنة عشرة كنت أعمل منذ سنتين. لم أحصل أبداً على رفاهية التعليم لمدة طويلة.» قالت بلهجة جافة. «سوف تبقى طفلة طالما أبقيتها في المدرسة. إن سارة امرأة يافعة. لقد حكمت عليها! كلا، ليست كذلك، ولكنها تحب أن تكون كذلك.» قالت بصوت عالٍ. «انظري إلى هذه.» قال وهو يخرج صورة فوتوغرافية من جيبيه الداخلي ويضعها على الطاولة. التقطت جيمسي الصورة. إنها بنت صغيرة الجسم قاتمة العينين، خصل من شعرها الأشقر الرائع تنساب على وجهها وتزيد من تركيز الألوان في عينيها.

«هل تبدو كبالغة؟ كلا، ولم تتصرف كذلك. لقد أرسلتها إلى فرنسا لأن سمعتها في المدارس البريطانية منعتها من الالتحاق بمدرسة لائقة.» قال بتعب، وهو يعيد الصورة بعناية إلى محفظته وعيناه قاتمتان ومكتئبتان.

«ولكن بالتأكيد...» قالت جيمسي، وهي تفكر كم سيكون والداها قلقين عليها.

«سوف تعود، دائماً تفعل، لكن أنا أرفض.» ضرب قبضته المطبقة بإحكام بعنف على الطاولة تاركاً العنان لغضبه. دهشت جيمسي لقوة اعتقاده من أنها ستعود. لم تزّ أحداً من قبل غاضباً بشدة، على هذا النحو، أدركت بغريزتها أنها فقط رأس جبل من الجليد.

«افترض أنها قامت بذلك من قبل؟» قالت في محاولة لتهدئته، أسودت عيناه، أنهما تشعان بألوان متغيرة.

«في كل مرة كانت تحاول شيئاً متفرداً. في مرة ذهبت مع رفاقها وفي الثانية ذهبت في رحلة تزلج وفي أخرى صممت أنها بغير حاجة للتعليم، وأرادت أن تقوم برحلة طويلة حول العالم، تنتقل من سيارة إلى أخرى.»

هز رأسه من جانب إلى آخر. بدا متعباً.

وبغريزتها مدت جيمسي يدها نحوه.

«هل تعلم أين هي؟» سألت.

«سارة، أعتقد، أنها دائماً تذهب إلى هناك. تبقى لمدة أسبوع، لإثارتي ثم تعود بعد ذلك كالولد المبذر.»

«حسناً، ولكن هل أنت متأكد...» ابتدأت جيمسي، ولكن نظرته العميقة، أسكتتها على الفور. انهيا الوجبة بتناول القهوة حول المدفأة. وانتابها شعور هش من الأمان والهدوء، جلسا يجاهدان نفسيهما بهدوء أمام النار، ولكن دقاً خشناً على الباب أيقظ كلاهما من استغراقه في تفكيره الذاتي.

قفز روس بسرعة خفيفة واتجه نحو الباب وهي تدعو بسرها أن تكون هناك أخبار جيدة. استطاعت أن تسمع المناقشة قبل وصول روس إلى الباب. صوته كان بارداً

وقوياً وصوت الزائر غير المرئي لا يقل عنه عنفاً وضراوة.

صممت على عدم الاستماع إلى أن أدركت أن المناقشة تتعلق بها. تجمدت، وأصبحت النبرات أشد ضراوة، مما صعّب عليها الاستماع الاستيعاب ـ وإذا بالباب يقفل بقوة لدرجة أن جيمسي صرخت من الدهشة، اهتز الكوخ الصغير باهتزازه، وقف روس ويداه مثنيتان على صدره في إشارة غضب. ضاقت عيناه على شكل صوان ثلجي بارد، سلوكه بشكل عام يزيد من حرارة الجو المتلبد. حدق بجيمسي وعيناه مليئتان بالاتهام. لم يكن لديها أية فكرة عن الذنب الذي ارتكبته، ووقف إلى جانبه رجل عجوز، رث الثياب، لكنه بدا مميزاً، كان يقف وقفة عز وافتخار وابتسامة المنتصر تتراءى خلف لحيته الكثة، الحمراء اللون.

«إنه رائع أن ترى ابنة ماكدونالد تعود إلى مكانها المبتسم.» ابتسم بابتهاج صوب جيمسي فالقت نظرة ذهول نحو روس ولكنه كان غير آبه بها.

«حسناً، لقد قلت دائماً بأنه سيأتي اليوم الذي يمشي فيه آل ماكدونالد بتفاخر في شوارع هذه البلدة، كنت أعد تلك الأيام. وأعد أيام آل ستيوارت، مسجلين كلماتي.» أضاف: «إنه لشيء رائع.» وهو يراقب روس بازدراء. وعلى الرغم من الذهول الذي أصابها من المشهد الذي أمامها وجدت جيمسي صعوبة في أن لا تضحك. إن التحالف مع رجل عجوز فيه متعة. إثنان من آل ماكدونالد يتآمران سوية ضد آل ستيوارت، سخر روس بقوة واستدار على عقبيه ومشى بخطوات واسعة خارج الغرفة.

الفصل الثالث

حدقت جيمسي، من وراء ظهر روس، إلى الرجل العجوز والأفكار تتسارع في عقلها وقلبها يخفق بشدة.

«هل أنت من آل ماكدونالد؟» قالت لاهثة، وابتسامة عريضة تعتلي وجهها، وتنظر نحو الرجل الغريب، غير مصدقة.

«نعم، أنا كذلك. كاميرون ماكدونالد، وأنا افتخر بذلك.» أومأ رأسه، فاتحاً ذراعيه بإشارة صادقة. من دون انتظار مزيد من الدعوة، اندفعت جيمسي نحوه وعانق أحدهما الآخر بقوة كصديقين فقدا بعضهما. قُطِع عناقهما بصوت فحة. التفتت جيمسي نحو مصدر الصوت، بسرعة لترى ميرلي مذهولة.

«ميرلي، هذا كاميرون ماكدونالد قريب لي.» قالت من دون أن تخفي تفاخرها.

«إني أعرف السيد كاميرون منذ أعوام عدة ولكننا لم نكن صديقين.» ضحكت وهي مسرورة، فابتسم لها غافراً.

«تفضل بالجلوس؛ أنا أود معرفة الكثير عن عائلتي.» قالت جيمسي وهي تواكبه إلى قرب المدفأة.

«حقاً، ولدي الكثير لأخبرك.» قال بوقار وهو يجلس على كرسي قرب الموقد، قطب حاجبيه وبدا التجهم على وجهه المتجعد.

اكتشفت جيمسي وميرلي أنه قصاص ممتاز وجلستا بلا

حراك تستمتعان بكل كلمة من كلماته. ميرلي كانت تناقشه من وقت لآخر، في بعض الوقائع فيضطر إلى تغيير بعض العبارات. أحست جيمسي بانه أعطاها القليل، مما جعلها متشوقة لمعرفة المزيد عن تاريخ دنكلي وأهلها. كان الوقت قبيل منتصف الليل، عندما غادر كاميرون على الرغم من أنها شجعته على البقاء ولم تعجب بفكرة ذهابه ليلاً، ولكن من دون جدوى. أومأ رأسه شاكراً ودعاها لزيارته.

«عندي الكثير من الأخبار التي سوف تسعدك.» ووضع يده فوق أنفه هامساً: «سرية.» وخرج.

ابتسمت جيمسي وهي تأوي إلى فراشها، فلقد بدأت عطلتها بالسير نحو الأحسن بعد العناء الذي تكبدته. كانت تفكر مبتهجة، واستغرقت في نوم عميق تحت الأغطية الصوفية السميكة. قرع فاتر على الباب، أيقظ جيمسي من نومها وحطم حلمها الجميل. فركت عينيها وتثاءبت بكسل. تساءلت بعد لحظة عن السبب الذي ايقظها، ثم تكرر القرع على الباب. جرت نفسها وهي تترنح على السلم الضيق، فوجدت الباب غير مغلق باحكام، منقرعاً مع كل هبة ريح. ارتعدت وهي تقفل الباب. إنها الآن مستيقظة ولا يمكن العودة للاستغراق في النوم دون شراب ساخن. جلست إلى الطاولة ترتشف فنجاناً من الشاي وهي تفكر بالعداء القديم بين آل ستيوارت وآل ماكدونالد، عندما سمعت صوتاً تعرفه ينادي باسمها. اتسعت حدقتاها واستدارت لتواجه بوجه روس قريباً من الزجاج المقفل. أحست بالغضب، إذ كيف يجرؤ على المجيء وينظر إليها بفضول؟ وقفت بسرعة واتجهت لتفتح باب المطبخ، ومن دون أن تدرك قسوة

العاصفة الثلجية في الخارج، ورغم ذلك لم تبرد أعصابها المتوترة.

«ماذا تعتقد نفسك أنك تلهو به؟» سألته بغضب.

«إني أعرف أن الوقت مبكر، ولكني وجدت النور مضاءً فقلت إنك لا بد مستيقظة، واعتقدت أنك ربما تستمتعين بالذهاب إلى صيد السمك.» شرح ذلك بهدوء غير واعٍ لغضبها. حملقت به، غير مصدقة.

«الآن، والسماء تمطر؟ إنها تمطر بشدة، لا بد أنك مجنون؟»

«ربما، ولكنني ذاهب. فإذا كنت تعلمين شيئاً عن صيد السمك فهذا هو أنسب وقت.» أخبرها بكبرياء مصطنعة. «حسناً، هل ستأتين؟» سألها وهي لا تزال غير متأكدة وتنظر إلى الظلام والمطر المنهمر في الخارج. «إنها فرصتك للاستمتاع بجمال اسكوتلندا. إن هذه الرحلة هي تعويض عن الغداء.» أخبرها والتكبر باد في نبرته. أعجبتها الفكرة على الفور، لقد كان يعرف أنها ستوافق إذ عزف على الوتر الحساس لديها وهو حبها للطبيعة؛ إنها شديدة التوق لرؤية المناظر الطبيعية، ابتسمت له وأومأت رأسها موافقة. على وشك دعوته للدخول عندما تذكرت ميرلي.

«انتظرني في القاعة! سأكون جاهزة خلال دقيقتين.» قالت وهي تسرع الخطى خارج المطبخ. إنها أحبت فكرة الذهاب، ولكن لا بد من وجود حافز دفعه إلى دعوتها. قطبت حاجبيها، مركزة تفكيرها. وبدت لها الفكرة واضحة، إن السبب هو منعها من الاستمرار في البحث عن تاريخ عائلتها. لم يكن لديها الوقت الكافي لأخذ حمامها المعتاد، فبدلاً

منه نثرت الماء البارد على وجهها كي تنتعش. دقات قلبها تتسارع وهي تتوقع حدوث شيء ما. أخبرت ميرلي بالذي حصل وارتدت كنزة قطنية سميكة وسروال جينز باهتاً، بحثت ملهوفة عن حذائها وأطلقت تنهيدة عندما وجدته تحت السرير.

«ستكونين بخير، أليس كذلك؟» سألتها بقلق وهي تنظر إليها وهي شبه مستلقية رابضة في سريرها.

«أعدي الطعام بنفسك، فلديك الكثير، أو بإمكانك انتظار عودتي لتأكلي سمكاً طازجاً.»

«أوه!» الجواب الوحيد الذي وصل إليها واختفت ميرلي تحت الأغطية السميكة. تناولت جيمسي آلة التصوير وأسرعت تقفز السلم، وقفت بكامل أناقتها أمام روس الذي رفع حاجبيه من دون تعليق. إنها لغز كبير بالنسبة إليه لا يستطيع سبر اغواره، حتى الآن. فإضافة إلى الغموض الذي يلفها، هي تعتمد على نفسها.

«جاهزة؟» سألها.

«دقيقتان، كما اخبرتك.»

«لقد عددت ثلاثاً.»

«إنك تعد سريعاً.»

لم يرد عليها ولكن مشى بخطوات واسعة نحو سيارته تبعته جيمسي، ولاحظت عليه قلة الصبر. جلست بارتياح على مقعد السيارة إلى جانبه. لامست رجلها رجله وبسرعة خاطفة سحبا رجليهما، وكان الدفء الذي سرى بداخلهما من جراء هذه اللمسة الخاطفة غامضاً وجديراً بالتأمل.

«هناك قارورة من القهوة، تناولي منها بنفسك.» اخبرها

بسرعة وهو يشير إلى الرف الموجود تحت لوحة اجهزة القياس في العربة. سكبت جيمسي قدحاً من القهوة، بامتنان، وبدأت ترشف منه وهي تنظر خارج النافذة.

اجتازا الشارع الرئيسي وأخذا يسيران بطريق فرعي ملتو نحو الجبال. الوقت ما زال معتماً ومصابيح السيارة تضيء بلمحات خاطفة الأشجار والمزارع التي يمران بها. داس روس فجأة، على المكابح بشدة، وانسكب قليل من القهوة الساخنة على سروال جيمسي وصرخت بسخط عندما احست بالقهوة الساخنة تتسرب إلى جلدها. بدأت بالاحتجاج إلى أن تفهمت السبب الذي منعهما من مواصلة رحلتهما. اطفأ روس مصابيح السيارة فأصبح الحيوان الذي أمامهما ظاهراً بوضوح. كان منظراً مهيباً. وعل ممتلىء يقف أمامهما بتحد في منتصف الطريق، قرونه ضخمة ترتفع كتاج فوق رأسه الشامخ. تفرس بهما وكأنه يعترض على حضورهما، ولا يبدو عليه الخوف ولا الترحيب. بعد ذلك اختفى في الغابة من دون سبب. اطلقت جيمسي بعدها، صرخة هلع.

«نسيت أن التقط له صورة فوتوغرافية.» قالت صارخة، وناسية تماماً ما أصاب سروالها من البلل.

«سوف ترين الكثير منها اليوم.» أخبرها وهما يستأنفان الرحلة.

«هل سيحدث هذا؟» تساءلت مبتهجة من المشهد، هز رأسه موافقاً وعلامات السرور على شفتيه، واضحة على الرغم من الضوء الخافت. رمقها بنظرة خاطفة، ولكنها كانت تنظر نحو الغابات الكثيفة الممتدة على جانبي

الطريق ومصممة على أن لا يفوتها تصوير المنظر التالي.

«طريق طويلة، أليس كذلك؟» سألت وهي تشير إلى الطريق. هز روس كتفيه.

«نعم، اعتقد ذلك، ولكنها تستحق هذا العناء.» أجابها وعيناه مثبتتان على الطريق.

«ألا يوجد مكان أقرب، تستطيع أن تصطاد فيه؟» قالت وهي تنظر إلى ساعتها. أحس بغضبها من نبرة صوتها، رمقها بنظرة سريعة وعاد يتابع طريقه.

«الأشياء الجميلة ينالها دائماً من يستطيعون الانتظار.» قال بطريقة ساخرة وهو يستمتع بالنظرة الغاضبة في عينيها المفعمتين بالحيوية.

«هذا صحيح، يا سيد ستيوارت، وعلى الرغم من تأخيري اليوم فاني لا زلت أريد متابعة البحث عن عائلتي.» ردت بنشاط وهي ترمقه بنظرة غاضبة من عينيها الخضراوين.

«هذا سخيف.» قال بتجهم: «لقد دعوتك إلى البحيرة...»

«انس الموضوع، لا أريد سماع شيء عنه! هل تعتقد حقاً أني سأذجة؟» صرخت في وجهه غير سامحة له بإنهاء كلامه.

«هل تعتقدين أنني أتيت لأدعوك إلى البحيرة من أجل منعك من مواصلة البحث عن الفكرة الغبية التي تلهثين وراءها؟» قال بصوت ساخر أغاظ جيمسي.

«إنها ليست فكرة بهذا الغباء. إنني مقتنعة بأنك خاطىء واود معرفة الحقيقة.» اجابته بغضب وهي تشير نحوه بإصبعها. التفت إليها، وقد بدت عيناه الزرقاوان باردتين كالفولاذ، فانزلت جيمسي أصبعها تحت تأثير نظراته.

«اسمعي.» قال بصوت هادىء قوي يتضمن تهديداً: «لا تشيري نحوي ثانية وكأنني لا زلت صبياً سيء السلوك في المدرسة. لا تحاولي قراءة أفكاري لأنك سوف تفسرينها بشكل خاطىء. لقد دعوتك إلى البحيرة للصيد ولأشكرك على الغداء، وإذا كنت تعتقدين أن في هذا أي مشكلة فإني استطيع العودة، على الفور.»

لحظات استغرقتها جيمسي لتصحو من هذا الانفجار، ولم تكن مستعدة لأن يتركها هنا.

«يا سيد ستيوارت، ربما تعودت على إصدار أوامرك على من حولك، ولكن لا تحاول ذلك معي.» اجابته بتكبر. أطلقت السيارة صوتاً عالياً من جراء التوقف المفاجىء والتفت روس نحوها وتعابيره الغاضبة سببت لجيمسي رعشات من الخوف، سرت في عمودها الفقري.

«هكذا اذن!» قال بصوت عالٍ وهو يعض على شفتيه، محدقاً بها: «إنك أسوأ انثى وأشدهن أنانية قادني سوء حظي للتعرف عليها. لدي النية في تركك هنا حتى تعودي سيراً على قدميك.» صرخ بها وهو ينظر إليها بازدراء. شعرت جيمسي بالذنب، هل هي مخطئة؟ فكرت يائسة وهي تواجه نظراته الغاضبة وشعرت بتورد وجنتيها خجلاً فيما هو واصل التحديق فيها.

«أنا آسفة.» تمتمت بهدوء.

«عفواً؟» قال بصوت مرتفع، تجهمت جيمسي وهي على يقين من أنه سمعها.

كررت بصوت مرتفع وعيناها تتحديانه: «أنا آسفة.»

أومأ رأسه كجواب، وبدت على شفتيه ابتسامة انتصار،

جعلت جيمسي تقطب حاجبيها. استدارت لتنظر من النافذة وهي مصممة على عدم التكلم ثانية. وبعد حوالى نصف ساعة، بدأت مناظر الريف الجميلة تتكشف للعيان. على الرغم من الظلام، فلا يمكن إخفاء عظمة الأرض. الجبال، كأنها قلاع طبيعية، ترتفع حولهما، وكل منها يستعرض جماله الخاص من حيث الشكل والحجم واللون.

أخيراً انعطف روس عن الطريق الرئيسية وبدأ رحلة وعرة فوق طريق حجري. لم تر أي ضوء ينبعث من خلال الأشجار التي تلف الطريق وبدأت جيمسي تشك في حكمة مجيئها معه.

«إننا هنا الآن.» أخبرها وقد أدرك رهبتها المتزايدة وهو يوقف السيارة. وعلى الرغم من قلة الضوء فقد مشى روس بين الأشجار واثق النفس، مشيراً لها بأن تتبعه. ابتلعت غضبها وتبعته، وكان مجهوداً شاقاً عليها. بعد خطوات قليلة برزت البحيرة أمامهما خلف الأشجار. كان منظراً مثيراً. الجبال تحيط بالبحيرة وكأنها تعتني بها كطفلها الوحيد. بدت الغابة تغطي ضفاف البحيرة وكأنها جمال مختفٍ أو كجوهرة نفيسة لا تظهر إلا على النخبة الممتازة. سرى نسيم عليل من وسط البحيرة، حاملاً معه رذاذ الماء في هوائه الرطب. جلست جيمسي على صخرة كبيرة، مفتونة بصفاء الماء المنبسط والمظلل بشكل رائع. وراقبت المياه تتماوج بلطف فوق أصابع قدميها، غير آبهة بقساوة هواء الصباح البارد والمنعش.

«الفطور جاهز.» قال روس هامساً. مدركاً التأثير الهادىء للماء على الناس.

التفتت نحوه، عيناها تشعان وقد بدت زرقة الماء تنعكس عليهما وابتسمت طويلاً إلى أن تمنى أن يلمس شفتيها.

«الافطار.» قال للمرة الثانية، واستدار عائداً، ليحرر نفسه من التفكير بها. تبعته جيمسي طائعة وهي تتوقع قارورة من القهوة وبعضاً من السندويشات. لم يتجه صوب السيارة؛ إنها متأكدة من ذلك. ثم رأت المكان، غرفة خشبية صغيرة تربض بين الأشجار. اطلقت صرخة سرور، واسرعت في الدخول.

يبدو بسيطاً جداً من الداخل، وخالياً من أنواع الرفاهية، وكأنه مكان خاص بالرجال، نظرت إلى جدرانه الباهتة ومدى افتقارها إلى الألوان. الأرض خشبية لماعة، بساطان ممدودان فوقها بشكل منظم. الأول أمام المدفأة المكونة من قرميد غير مدهون من الداخل، ومقدمتها مصنوعة من النحاس. النار المشتعلة بداخلها تنعكس على النحاس الأحمر. والبساط الثاني وضع قرب النافذة بشكل عمودي ليغطي جداراً من الأرض إلى السقف حاجباً بذلك المنظر الرائع للبحيرة. وعلى حافة النافذة مجموعة متناسقة من الوسادات. هناك وضع روس طعام الافطار. «يمكننا الاستمتاع بمنظر الشروق بينما نتناول الافطار.» اخبرها وهو يجلس إلى جانبها.

«شكراً لك؛ لا أعرف كيف اكافئك.» بدأت الحديث لكنه قاطعها على الفور. فهو لا يحبها أن تكون لطيفة ومهذبة إذ لو كانت كذلك، لما أمكنه أن يبقى منيعاً وجذاباً.

«إنها فقط رقائق من لحم البقر المقدد مع البيض.»

«أنت تعرف انني لم اقصد أن...» ولكنها توقفت عن

الكلام وقد احست بارتباكه، وغيرت الحديث، وعادت للاستمتاع بالمنظر المثير. أصوات زقزقة العصافير تنساب من خلال النافذة المفتوحة، على الرغم من أن الظلام لا يزال مخيماً، بعد ذلك وببطء شديد بدأ الضوء بالتسرب تدريجياً. شعاع باهت بدأ يشرق بين سلسلة الجبال، محولاً الظلام إلى اللون الرمادي القاتم. بدا ذلك وكأن غطاء يُرفع ببطء، ويظهر المنظر بشكل باهت. جلسا معاً في هدوء، يراقبان مناظر الريف الطبيعية تتحول من لون رمادي وهي غير واضحة إلى ألوان مشرقة ومشعة. الشمس لا تزال محتجبة، وقد بدأت اشعتها تنعكس على قمم الجبال، لتظهر المتبقي على رؤوسها من الثلج الأبيض وكأنه أكواز من البوظة الطازجة. بعدها بدأت أزهار الخلنج المبعثرة تلون الجبال الصخرية. الفجر ينبثق والشمس بدأت شروقها فوق الجبال تنير الغابات الكثيفة المظلمة. وأخيراً، بدا المنظر وكأنه قطعة موسيقية تعزفها اوركسترا البحيرة. والضوء شرع يتخلل البحيرة كاشفاً الجمال اللامتناهي... اكتملت الصورة. وتنهدت جيمسي والكلمات عاجزة عن وصف الأحاسيس التي تشعر بها. وضع روس يده على يدها، وبدأ يضغط بلطف طاقة قوية بدت كأنها تتفاعل بينهما، سحبت جيمسي يدها بسرعة، خائفة مما قد يؤدي إليه هذا الشعور استدارت على كره منها عن النافذة وابتسمت له ممتنة.

«إن ذلك رائع؛ لقد أحسست أنه بطريقة غريبة جزء من التكوين. إن ذلك غير حقيقي.» أقرت بغلطتها، وهي مقتنعة

بأنه قد يسخر منها، ولكن بدلاً من ذلك، ضغط ثانية على يدها.

«هيا بنا نقوم برحلة في البحيرة.» سحبها من يدها للوقوف، رافقها إلى الجانب الآخر من الغرفة، وكان لا يزال ممسكاً بيدها عندما وصلا إلى حاجز صغير حيث ترسو الزوارق. مركب صغير يندفع الماء على جوانبه بنحو ايقاعي. لم يمض وقت طويل حتى كانا في وسط البحيرة وحيدين. شعرت جيمسي بأنها مهددة؛ هذا روس الذي التقته واصبحا كأنهما صديقان قديمان وبشكل أو بآخر فإن شيئاً ما سيحدث بينهما. كانت خيوط سنانير الصيد تهتز بشكل دوري وتبعث النشاط فيهما.

أحياناً كان حظ جيمسي وليس مهارتها، الذي جعلها تمسك ببعض الأسماك، ولكن أي واحدة منها لم تزن أكثر من رطلين.

«لماذا لا يوجد أناس آخرون يصطادون هنا؟» سألت: «يبدو لي غريباً، أن لا يوجد أحداً سوانا؟»

«إنه مكان خاص. إني امتلكه، وامتلك معظم ما رأيته؟» قال ذلك من دون أي تكبر. إنها الحقيقة، وتشاغل عنها بوضع طعم في سنارته.

نظرت جيمسي حول البحيرة وما يحيط بها، فبدا شيئاً لا يصدق، كيف أن رجلاً واحداً بامكانه امتلاك كل هذا. لم تستطع أن تصرف التفكير عن هذا. إنه شيء غير عادل! فهذا الجمال ملك للجميع.

«كل هذا، لك؟» كررت وهي تشير بيدها. أومأ رأسه مؤكداً ما قال منذ قليل. «هل تتقاسمه مع أحد؟» قالت بتحد. ونبرة قاسية أدهشته.

«إنني اشاركك به.» أجاب متيحاً لها الفرصة لمعرفة ما تريده.

«وهل تعتقد بأن ذلك كاف؟» سألت بصوت عالٍ.

«إنه كثير، بقدر ما يمكنني اعطاؤك.»

«هراء، وماذا عن الغرفة الصغيرة؟» قالت بشكل لاذع.

نظر إليها بدهشة للحظات قبل أن يكرر ببطء سائلاً: «الغرفة؟ ماذا تعنين؟»

«الغرفة الخشبية، هي الأخرى لك، لكونها قرب البحيرة.»

«حسناً، لماذا؟» قال وقد توترت أعصابه فجأة، واحلولكت عيناه. لقد أدرك أن فترة الهدوء بينهما قد انتهت، وعاد كلاهما إلى طبيعته.

«الناس، السائحون، الذين يحبون قضاء عطلاتهم.» ردت.

قطب حاجبيه، وعيناه غير متسامحتين، وقال: «يوجد القليل جداً منهم في المنطقة.»

«هل أنت مندهش؟» قالت وهي تتهمه.

«لست مندهشاً ولا مستمتعاً.» قال بصوت منخفض وغاضب.

«إنك تعترضهم، أليس كذلك؟» قالت ببرودة: «اعتقد أن الناس العاديين غير مناسبين لكل هذا، إنها تناسب الاغنياء فقط.»

ابتسم لطريقة اختيارها الكلمات المناسبة، والتي تفتقر إلى روح الدعابة. كان جاداً وصوته جافاً. «كفي عن هذا السلوك الدرامي. إني أعرف بعض المشكلات التي نتأت من تطوير هذه المنطقة، وكان من الممكن أن تؤدي إلى تدمير...»

«تدمير لمن؟» تساءلت بحدة.

«البيئة. الريف هش، وبحاجة لأن يعتنى به.» شرح لها بصوت كله ألم.

«ليس الجميع بلهاء، لماذا تحكم على الجميع بتحامل؟»

«إنه ليس تحاملاً بل خبرة.» رد عليها وهو يقترب نحوها، في حركة تهديد.

«كيف تجرؤ على أن تنصب نفسك مكان القاضي. والمحلفين؟ فكل انسان له حرية الذهاب إلى المكان الذي يختاره.» ردت وعيناها تشعان، وغير مهتمة بالتأثير الذي تركته كلماتها عليه. كان غاضباً، فالكلمة البسيطة حرية تغضبه. لقد كان حراً من المسؤولية، حراً من ضغط الواجبات، متحرراً من كل الالتزامات، ولم يدم ذلك وقتاً طويلاً، فقد انتهى سريعاً، وأجبر على تقبل دوره الجديد. حملق بها ببرودة وهو عابس، وفي داخله ألم عميق جداً.

«حرية؟ حرية، مهما كان الأذى الذي قد تسببه؟ الناس أحرار في التجول في مكان يختارونه، باستثناء هذه المنطقة.» قال بحدة وفمه متجهم وتعابير العنف تغطي وجهه الصارم.

«السيد يتكلم.» قالت باستهزاء. «هل تعتقد حقاً انك تملك نوعاً من الحق الالهي، أليس كذلك؟»

«هنا أنا أفعل، إني أمتلك قوة تفوق كل شيء.» التهديد الرقيق واضح في نبرة صوته واقترب منها أكثر. حملق فيها وعيناه الباردتان القاتمتان كالصوان، ولون وجهه بدأ يتلاشى تدريجياً وغضبه يزداد. ضمها من وسطها بشدة جعلتها تصرخ من الألم. أذهلها فعله فصمتت وتقابلت

أعينهما بصراع غاضب. حاولت جيمسي أن تدفعه بيديها لتستعيد حريتها، ولكنه كان يمسك بها بقوة وإحكام. تفرس فيها وصمته المخيف يوبخها أكثر من ثورة الغضب التي توقعتها منه. وحاولت مجاراته في الغضب ولكن غضبها تبخر تحت تأثير نظراته الجامدة.

تحرك بينهما فجأة شعور آخر جعل جيمسي تحس بالظمأ. إنها خائفة، فالوضع أصبح جدياً وخارجاً عن التحكم، إنها تعرف وهو يحني رأسه نحوها بأنه سوف يلثمها، ولكنها شعرت بانعدام القدرة على تحريك رأسها.

حاولت الابتعاد وهي تكافح بمرارة. استطاعت تحرير يديها وأخذت تضربه على ظهره الصلب بقبضتيها الصغيرتين، ولكن لم يعر ضرباتها أي انتباه. تلوت تحت تأثير فعله، بدأت تلهث سريعاً لكن قوة روس وقبضته المحكمة لم تسمح لها بالهروب.

وبعد ذلك حدث شيء غريب، فبعد دقيقة من الصراع التصقا ببعضهما بعد أن تفجرت فيهما الرغبة والانفعال. أمسكت رأسه بيديها، وأصابعها ممسكة بشعره الكثيف وعانقته.

التقطت جيمسي أنفاسها وقد بدأت تشعر بدوار في رأسها، وجسدها يستجيب من دون كبح. جلسا على متن المركب غير آبهة بالألواح الخشبية الصلبة تضغط على ظهرها. وفجأة أحست بأنها تتجمد وقد بدأ انذار ينبهها إلى خطورة الموقف. صرخت قائلة: «لا!» وهي تحاول الابتعاد عنه وتدفعه بيديها الاثنتين.

رفع روس رأسه وقد توهج وجهه. حملقا ببعضهما في

ارتباك للحظات. لا يزال قلبها يدق سريعاً، وجسدها يرتعش بشكل متواصل.

«هل هناك مشكلة؟» قال ببرودة، وهمّ يريد الإمساك بها ثانية.

«أرجوك أن لا تفعل، انه ليس عملاً صحيحاً، يجب أن لا نفعل ذلك.» قالت متمتمة وهي تحاول أن تستعيد رباطة جأشها.

«لم لا؟» تساءل وعيناه تلمعان.

«إنه غير صحيح...» بدأت بالكلام، ولكنه قاطعها على الفور.

«لأنه ضد التقاليد؟ اننا في التسعينات... لست بحاجة إلى خاتم زفاف!» قال صارخاً. وقد ادرك فجأة موقفها منه. ونظر إليها بهدوء، متذهلاً.

«إني بغير حاجة إلى خاتم زفاف.» قالت بتهكم، وهي تحاول أن تبدو انها متحررة مثلها مثل أي شخص آخر.

«كلا؟» قال بازدراء. «اذاً ما هي المشكلة؟ كان كل شيء يسير حسناً.» قال وبدأ يلاطفها ويداعب وجهها.

«توقف عن هذا!» صرخت به وتعثرت وهي تحاول الابتعاد. عيناه تشتعلان وهما تتفحصانها، فبلعت ريقها، وشعرت أن وجنتيها محرورتان ومتوردتان.

«ما المشكلة؟ لماذا ترفضين؟ أنت تريدين ذلك مثلي.» قال بعمق، وصوته خشن، هزت رأسها دليل الرفض، وقد تسدل شعرها أمام وجهها.

«كلا.» قالت وهي تتأوه: «لا أريد فعل أي شيء معك. أنت تجبرني على ذلك.»

عانقها وعيناه سوداوان كخشب الابنوس الأسود، وأصابعه تداعب كتفيها. «أنا لا أجبرك، لست مضطراً لذلك، إنك تستجيبين لي. هل تعلمين ما كنت تقولينه؟» سألها. أحست جيمسي بالذي فعلته؛ خجلت من نفسها، خفضت رأسها حتى لا تواجه عينيه المشعتين. «هل تدركين؟» صاح بها وهو يهز كتفيها بقوة، جعلتها تصرخ.

«أريد الذهاب إلى البيت.» الجواب الوحيد الذي قالته، والدموع تنهمر من عينيها. إنها تعلم أنه كان تصرفاً سخيفاً، لكنها غير قادرة على التفكير، لأنها تشعر بالحيرة والذهول مما حدث.

«سوف أعيدك في الحال، ولو كنت مكانك لبقيت بعيداً عن طريقي.» قال بصوت عالٍ وغضبه في أوجه. طاطأت رأسها، لا تجرؤ على الكلام بينما رفع الشراع بسرعة.

في وقت قصير كانا عائدين في السيارة واليوم الذي بدأ بشكل جيد تبخر الآن. الحواجز انتصبت بينهما، ورحلة العودة كانت كئيبة. تمت بصمت مطبق على الرغم من احساسه بأن لديه أشياء كثيرة للقول، لكنه شعر انه قد غرر به، خاصة عندما تكلم مع شخص من آل ماكدونالد. وجيمسي تشعر بالغضب كالذي يحس به، لكنها غير متأكدة من أن الشعور بالغضب هذا هل هو موجه لنفسها أم إليه، فالأمور بدت لها متداخلة.

قطع تفكيرها صوت روس القوي الذي يحملق من النافذة وأعصابه مشدودة من الغضب.

«ما هذا الجحيم؟» انفجر وهو يوقف السيارة فجأة.

نظرت جيمسي مرعوبة، ورأت موجات من الدخان الأسود تتصاعد من الكوخ الذي تقطنه.

«إنها هناك!» صاحت، واندفعت مسرعة من السيارة. طاردها روس وأمسكها من كتفيها باحكام، مجبراً إياها على النظر إليه.

«لا تكوني غبية، لا تستطيعين الدخول فالدخان كثيف.» صرخ بصوت أعلى من صوتها.

«يجب أن.. ألا تدرك ذلك؟ علي أن..» تنهدت.

فجأة انطلق صوت يقول: «أنا سالمة، شكراً لك، ولكنني متأسفة من كون المطبخ أصبح في فوضى رهيبة.»

التفت كلاهما وصاحا سوية: «ميرلي!... سارة!»

«سارة؟» رددت جيمسي. وقد بدا شعرها القصير المتجعد كما لو أنه شعر مستعار، وشعرها الحقيقي الأشقر ينسدل على وجهها. القت جيمسي نظرة سريعة نحو روس غير مصدقة، رأته وقد تجهم وجهه، والشرر يتطاير من عينيه.

«أنت بالتأكيد تدعين انك لا تعرفين؟» قال بصوت مرتفع،

«أنا لا...» بدأت جيمسي بالكلام وهي تلقي نظرها على سارة.

«ابقي هادئة! لقد تعبت حقاً من الدور الذي تقومين بتمثيله.» بدأ وجهها يتلون، وهي تعي قصده، وتكرهه لذكر ذلك. التفت ليواجه سارة، وشحب لون الطفلة المسكينة تحت تأثير نظراته الخشنة. «لديك الكثير لتشرحيه لي.» قال بصوت هادىء رقيق وعميق، يثير الخوف أكثر مما لو تكلم بصوت مرتفع.

خفضت سارة رأسها، وجرّت قدميها متثاقلة على الأرض بصمت.

«سارة!» قال روس بصوت مرتفع، جعل جيمسي وسارة تقفزان عن الأرض. نظر كلاهما إليه. في نظراته غضب شديد وبرودة قاسية. «إصعدي إلى السيارة، الآن.» أطاعت سارة بسرعة، شعرت جيمسي بالأسف لها. كان روس غاضباً وجيمسي تشعر بأنها قد غرر بها، واستغربت سلوك سارة. التفت روس نحو جيمسي؛ اشعرها بالحرارة تتدفق في وجهها من نظرة الازدراء في عينيه. «هل تكرهين آل ستيوارت إلى الحد الذي يجعلك تبحثين عن الثأر من خلال الحاق الأذى بي؟ هل كل شيء بالنسبة لك مجرد لعبة؟» سألها بمرارة.

«إنك لا تفهمني، فليس لدي أي فكرة...» قالت باحتجاج، ولكن الغضب في عينيه حذرها لكي تبقى هادئة. وقفا وعينا كل منهما مسمرتان على الآخر بغضب صامت. فجأة اتى رجل الأطفاء ليقطع عليهما معركتهما الصامتة.

«الأضرار ليست كثيرة، يا سيد ستيوارت، ولكني متأسف أن أعلمك بأن المطبخ أصبح عديم الفائدة.» هز رأسه. «يبدو أن المقلاة قد نسيت فوق الغاز المشتعل.» تابع قوله وهو ينظر إلى جيمسي بعيني الاتهام. انها على وشك الاحتجاج لكنها شعرت بأن سارة في مأزق كافٍ فآثرت التزام الصمت. مشى الرجلان حول المبنى وهما يتهامسان. جرت جيمسي قدميها ورائهما بتثاقل متسائلة عن حالة امتعتها. شعرت بالكآبة، فهي المرة الثانية التي يؤخذ منها بيتها، نظرت إلى الجدران الموشحة بالدخان وأخذت

الدموع تترقرق في عينيها. ماذا عليها أن تفعل؟ فكرت بيأس. وايقظها من ذهولها صوت روس الجاف.

«لا تستطيعين البقاء هنا، وحيث إن سارة هي المسؤولة...»

«كلا، ليست مسؤولة، علي أن...» رفع يده لايقافها عن الكلام.

«إنني متأكد من مسؤولية سارة عن الذي حصل؛ لذا فإن عليك قضاء الفترة المتبقية من وجودك في منزلي.» قال آمراً. إنها كدعوة، لم يبق الكثير للاختيار ولكنها شعرت وكأنها قد وقعت في الشرك ما بين الشيطان وبين مياه البحر الزرقاء العميقة. نظرت إلى تعابير وجهه الصارم، فادركت عدم جدوى مناقشته، لذا توجهت نحو السيارة بخطوات مثقلة. رمقتها سارة بنظرة تشجيع، وهي تتسلق السيارة بجهد كبير إلى جانب سارة التي اعتذرت بشفتيها، كما استدار روس حول السيارة وجلس بصرامة خلف المقود. ادار السيارة بحركة خفيفة من رسغه وضغط على البنزين جاعلاً السيارة تنطلق بسرعة. انعطف بالسيارة باتجاه الطريق الرئيسي بعد أن قطع الممر المفروش بالحصى.

كانت الرحلة مشحونة بالصمت حتى جيمسي لم تستطع قطعه. كانت ملامحه كفيلة بمنع أي واحد من الكلام، ابقى عينيه مثبتتين على الطريق، باستثناء الفترة التي رمى فيها سارة بنظرة غضب جعلتها تتحرك في جلستها من الخوف.

بعد فترة بدت دهراً، استدار روس نحو طريق خاص. هناك عمودان رماديان، ضخمان، مثبت عليهما بوابة

حديدية قاتمة فتحت على مصراعيها وكأنها كانت بانتظار تشريفهم. لم تكن طريق المنزل كثيرة الالتواء، وقد توقعت جيمسي أن يكون البيت كبيراً. إنه مكانها الملائم، فكرت وهي تسترجع كلمات كاميرون: «لا يمكن لأي كان استحضار ما يمكن قوله عندما تلمح بيت آل سيتوارت للمرة الأولى.» حجارة رمادية قاسية، وأبراج أربعة طويلة ترتفع على زواياه الأربع، تجعله يبدو وكأنه حصن ضد الغزاة. الكثير من النبات المتسلق الجدران يلطف من اسوداد جدران البيت، إضافة إلى النبات المطحلب الذي التصق إلى سطحه القاتم المكسو بالاردواز، يضيفان للبيت تصوراً، بأنه لا بد أن يكون مريحاً من الداخل. الباب يتألف من قسمين يتكونان من مجموعة من خشب السنديان السميك، ويقع في منتصف واجهة البيت. وجزء من هذا الباب مفتوح جزئيا بحيث ينتشر شعاع من الضوء عبر الممر. قفز روس من السيارة، مفاجئاً جيمسي عندما استدار نحوها فاتحاً لها الباب، مبدياً سلوكاً لطيفاً، لم تكن تتصوره. ارتعشت جيمسي حين شعرت بنسمة شمالية باردة تلفحها.

«نحن أعلى قليلاً من الآخرين، وإنها لاحدى المزايا الجيدة، خاصة عندما يحصل خلاف مع أحد من الجيران.» ابتسم بتجهم. «حسناً إن ضيفاً اضافياً ليس بمشكلة، ولكنه ضيف ممل...» قال وهو يهز كتفيه ويأمر جيمسي وسارة بأن تتبعاه.

«روس، سارة...! تعال سريعاً يا كايت، لقد عادا!»

«جيني، لدينا ضيف.» نهر روس الخادمة، الصغيرة الجسم، التي اتت مسرعة نحوه.

وقفت جيني وهي تتمايل وتنحني. «أنا آسفة، لم يكن لدي فكرة...» وبدت كأنها مرتبكة.

«لا مشكلة؛ لا شيء مهماً.» قال روس وهو يهم بالانصراف وقد أحست جيمسي باهانة مبطنة.

«هل أعد الغرفة الخضراء يا، سيدي؟» تساءلت الخادمة بلهفة، محاولة ارضاءه.

«لا، لا، أعدي الغرفة القرمزية. إنها أكثر دفئاً.» قالت سارة متدخلة.

التفت روس وحدق بسارة، ثم هز كتفيه: «لا فرق عندي أي غرفة كانت.»

أحست جيمسي بالخجل من كرهه الواضح لوجودها.

«سارة!» قال بصوت مرتفع: «سأبحث الموضوع معك قبل العشاء.» أمرها بذلك وهو يهم بالخروج.

أومأت سارة رأسها بصمت، رداً عليه، وابتسمت بعدها بحرارة لجيني. «تعالي لأعانقك.» قالت جيني وهي تبكي بعد أن خرج روس من الغرفة. نظرت جيني وراءها لتتأكد من خروج روس، ثم أسرعت سارة نحوها لترتمي في أحضان مربيتها.

«عظيم أن أراك! تعالي، دعيني آخذك إلى غرفتك. العشاء في السابعة تماماً، واعتقد أنه من الأفضل عدم المكوث هنا.» نصحت سارة جيمسي وأخذتا تصعدان السلم الضخم، المصنوع من خشب السنديان الداكن. انه مزخرف برسوم الطيور الجارحة. ويقع أسفله في منتصف البهو ويبدو أن اعلاه يختفي في السماء.

حدقت جيمسي حولها بشدة وهي تشاهد بقايا لوحات

المعارك القديمة، المرسومة على الجدران الصفراء. هذه اللوحات الزيتية التي تنتصب على الجدران تخبىء بين خيوطها أسرار الماضي. على قمة الدرج بهو كبير فسيح ومربع الشكل وطاولة كبيرة تنتصب في وسطه، عليها جرة نحاسية كبيرة، مليئة بأزهار الخلنج العطرة التي تم قطافها من التلال المجاورة، تتوهج بدفء وترحب بالقادمين بعد الصعود على السلالم الداكنة.

فتحت جيني أحد الأبواب، وقالت: «هذه هي الغرفة القرمزية.»

ابتسمت جيمسي شاكرة، ثم دخلت وأقفلت الباب بسكون. وتلاشى صوت سارة وجيني. الغرفة جميلة، أثاثها من خشب السنديان المعتق المحفور، بحيث يحتاج إلى جيش من الخدم لتنظيفه والمحافظة على لمعانه. إنها، كما توقعتها، يغلب عليها اللون القرمزي؛ تتوهج ستائرها بدفء ومتناسقة مع الجدران الوردية ذات اللون الفاتح. وسجادة كثيفة مصنوعة من اللون الأحمر الشبيه بالياقوت. تضفي على الغرفة شعوراً من الراحة والدفء. المدفأة خاوية لا أثر فيها للنار، ولكن ذلك لم يقلل من عظمة الغرفة.

لفت نظرها السرير الذي ترتفع على زواياه الأربع أعمدة ضخمة تتدلى منها ستائر حمراء داكنة مصنوعة من المخمل. يعلو السرير غطاء قطني مزركش، وبدا كأنه سرير ملكي مريح. جلست جيمسي على حافة السرير مبهورة. وبعد من أن تأكدت أنه يحتمل وزنها، بدأت تقفز عليه بخفة. وكانت على وشك الشعور بالاسترخاء عندما سمعت قرعاً قوياً على الباب جعلها تتجمد. ابتلعت ريقها.

متمنية أن لا يكون روس؛ فلم تكن على استعداد لمقابلته.

«ادخل.» قالت بوهن.

«هذه امتعتك يا، آنسة، تم احضارها من الكوخ. هل باستطاعتك توضيبها بنفسك، يا آنسة؟»

«بالطبع.» أجابته على الفور، فكرت ساخطة، إن امتعتها قليلة، وليست بحاجة لمن يساعدها في توضيبها. «شكراً لك، ليست لدي أي فكرة...» ابتدأت الكلام.

«السيد عمل عل احضارها.» أجاب على سؤالها بوقار وكأنه يتحدث عن إله بدلاً من رجل. مما ازعجها حقاً، ولكنها ابتسمت.

«شكراً لك على كل حال.»

«العشاء ليس قبل السابعة، لكن يوجد بعض السندويشات والقهوة في غرفة الصباح حيث الآنسة سارة بانتظارك.»

«سأكون هناك قريباً.»

«حسناً، إن السيد ستيوارت يعلمك برغبته في رؤيتك قبل العشاء إذا كان ذلك يروق لك.»

«بالطبع.» أجابت بسرعة. «سأكون سعيدة.» إنها تكذب من خلال ابتسامتها الصفراء.

عندما أقفل الخادم الباب أسرعت جيمسي ورمت نفسها فوق السرير، أقفلت عينيها بشدة، إن موعدها مع روس لم يكن بالموعد الذي تتطلع إليه بلهفة.

الفصل الرابع

أفرغت جيمسي ثيابها من الحقيبة. إنها محظوظة بما فيه الكفاية، إذ أن النار أتت على المطبخ فلم يحدث لحقيبتها أي ضرر يذكر، وجدت أن بعض الثياب تفوح منها رائحة الدخان فوضعتها على النافذة المفتوحة والباقي وضعته بعناية في الأدراج الأثرية المغطاة بأوراق، بلون الكريم، وتفوح منها رائحة العطر.

إنها لم تمكث في مكان جميل كهذا، قبل اليوم باستثناء المكان الذي اصطحبها إليه تود، لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، استرجعت هذه التذكريات بمرارة. لقد كان من المفترض أن تكون عطلة رومانسية. هناك أكد تود لها باخلاص أنه لن يضغط عليها، وسلمت بذلك وصدقته كما يفعل الأغبياء. ابتلعت الاحساس بالألم والغضب المالوفين لديها عندما تذكرت كم كانت تلك العطلة مخيفة. عبست جيمسي، وهي تتوق للتخلص من ظل تود. لن تتصرف كالأغبياء وتصدق رجلاً مرة ثانية. إن تذكريات تصرفاته جعلتها تشعر بالقذارة، وكانت ممتنة لدخولها الحمام. غسلت يديها وكأنها تحاول ازالة التذكريات الحالكة.

لم تكن بحاجة إلى افراغ حاجيات الحمام الخاصة بها، فكل شيء تريده موجود، صفوف مرتبة بنظام من صابون الأعشاب، الشامبو، زيوت الحمام وما يحتاجه الشعر كلها كانت موضوعة بعناية على رف خارجي. وجدت غرفة

الحمام فخمة، حديثة التصميم ومطلية باللون الزهري الخفيف وتحتوي على مناشف سميكة من النوع الباهظ الثمن، مما جعلها تتلهف إلى البقاء في حمام ساخن لوقت طويل.

تنهدت وهي تتذكر سارة، قطبت حاجبيها، لقد خدعتها سارة وتمنت أن تعرف سبب ذلك، وقد بدا تصرفها غريباً.

نزلت السلم بحذر وهي لا تزال تتمنى عدم مواجهة بروس، إذ كانت مرتبكة جداً. لا لأنه يعتقد بأنها خبأت أخته فقط، هذا شيء لم تفعله، بل أيضاً لتصرفها هذا الصباح في البحيرة والذي لن يغفره لها... اخضب لون وجهها، عندما استرجعت ما حدث بينهما، حينها بدا كل شيء طبيعياً جداً. وهذا أخطر ما في الأمر، إذ أنها لم تستسلم لرجل بهذه الطريقة، وتجاوبها معه أثار الرعب في قلبها. أخافها.

ابتسمت جيمسي عندما وجدت سارة بانتظارها، عند أسفل السلم، طردت على الفور، جميع الأفكار عن بروس، من رأسها.

«لقد تحولت، فعلاً.» قالت جيمسي بمرارة، عندما رأت سارة وهي ترتدي ثياباً أنيقة، باهظة الثمن. خجلت سارة قليلاً، ثم مدت يدها نحو جيمسي.

«أرجو أن لا تكوني مستاءة، إذ علي مواجهة بروس لاحقاً، وهذا شيء فيه الكفاية.» ناشدتها وهي تجرها إلى غرفة الصباح. تنهدت جيمسي وابتسمت للبنت الصغيرة.

«وأنا أيضاً، علي الإقرار بانه ليس اللقاء الذي اتلهف شوقاً إليه، ولكن على الأقل، تكونين قد شرحت له الموضوع.»

«أشرح ماذا؟» تساءلت سارة وهي تجلس على كرسي عالٍ وبدأت تسكب القهوة من الأبريق.

«سارة!» عاتبتها جيمسي وهي تشعر بالألم قد بدأ يزداد في معدتها. «عليك اخباره بالحقيقة.»

«لم يكن لدي أي فكرة، عمن تكونين حقاً. أوه، نلك! نعم، بالطبع سافعل ولكني أشك في أنه سيصدقني. على كل حال.» استنتجت متجهمة: «روس ليس الشخص الذي يستمع للشروحات خاصة عندما يكون غاضباً حقاً.»

كظمت جيمسي شعورها بالغضب ورفعت فنجان القهوة إلى فمها، وهي تتمنى أن تهدىء، دفعة الكافيين، من روعها. «إني متأكدة من أنه سوف يستمع، عليه أن...»

رأت جيمسي أن بقاءها في هذا البيت سيصبح مستحيلاً إذا بقيت أفكار روس نحوها على هذه الحال من السوء. يكفي أن تكون من آل ماكدونالد، وهو كاف لأن يعقد المسألة.

«سوف أحاول، أعدكِ بذلك.» أكدت سارة، وانحنت نحو جيمسي وهي تشد على يدها: «وأنت بإمكانكِ التكلم معه بالنيابة عني. قد يستمع اليكِ، اعتقد بأنه يحبك.»

«أنا!» ضحكت جيمسي. «مستحيل، لقد أخطأت الهدف.» وفي الوقت نفسه شعرت بالسرور من فكرة أنه يحبها.

«لقد أخذكِ إلى كوخه هذا الصباح، أليس كذلك؟» سألت سارة بنبرة انتصار.

«نعم، لكن جرت الأمور على عكس ما يجب...» وتحشرج صوت جيمسي، إنه من غير الممكن إخبار سارة بما حصل. فهو خاص بها، ولم تكن متأكدة بعد، عما يعنيه كل هذا.

«لم يأخذ أحداً، إلى هناك، من قبل، حتى ولا أنا.» ردت سارة بسرعة: «ومنذ وصول النسور هناك، لم يسمح لأحد ولا حتى الصيادين الاصطياد هناك.»

«النسور؟» رددت جيمسي وقد اعتراها احساس غير مريح ضايقها.

«نعم، زوج النسور الذهبية، زوج للتناسل، في السنة الماضية خرب عشهما، لذا فقد حرم الدخول على أي كان، لأن نلك اغضبه. وروس رفض اصدار أي اذن بالسماح في الصيد ومنع كل الزائرين من الذهاب إلى أي مكان حول البحيرة.»

«ولكن قبل نلك، هل كان يسمح للناس بالذهاب إلى البحيرة؟» سألت جيمسي وسرت في داخلها موجة باردة من الواقعية.

«آه، إن روس لا يريد أن يخرب منظر البحيرة الطبيعي. ولكنه سمح، فيما مضى، لسيارات الزائرين بالتجول في المنطقة بصورة منتظمة. وكان سعيداً جداً في السماح للناس بالصيد أو الابحار، إلى أن...»

«النسور الذهبية.» استنتجت جيمسي واستاءت من نفسها عندما تذكرت كيف ثارت في وجهه ورفضت الاستماع إليه.

«ماذا، ما الخطب؟» سألت سارة، وهي ترى الاضطراب بادياً على وجه جيمسي. نظرت إليها جيمسي، شبه مبتسمة وهزت رأسها.

«لا شيء، لا شيء اطلاقاً.» كذبت، وعقلها يدور في دوامة، وهي تسترجع المشاجرة العنيفة التي جرت بينها

وبين روس. لقد أخطأت في كل شيء. «لم الخداع، يا سارة، لمَ تغيير الاسم؟ إنكِ لم تشرحي لي ذلك إلى الآن.» سألت جيمسي، في محاولة لتغيير موضوع الحديث.

«إني أريد الذهاب إلى مدرسة التمثيل، إني جيدة...»

«أعرف ذلك.»

«نعم، حسناً، هذا هو الموضوع كله، أردت البقاء في القرية بحيث لا يلاحظ احد وجودي، منذ أكثر من أسبوع، على روس أن يصدقني، أليس كذلك؟»

«يصدقك، إنكِ شخص ذو مواهب وسيسمح لكِ بالذهاب والتدرب ثم الاحتراف!» قالت جيمسي وهي تستعيد ذكرياتها، وكيف هربت بعيداً، للحصول على ما تريد.

«هذا صحيح، ولكنه لا يريد حتى أن يناقش الموضوع. إنه من الطراز القديم.» قالت سارة محتجة، والعبوس والسخف يفسدان وجهها الجميل. لم يكن لدى جيمسي وقت للإجابة، إذ قطع حديثهما صوت روس الحاد.

«هل يوجد ما يكفي من القهوة لي؟» قال بصوت مرتفع وهو يحملق بسارة لاسكاتها، تلون وجه سارة بسرعة ووثبت واقفة.

«سأذهب وأحضر لك فنجاناً.» قالت بسرعة وهي تتوق لأن تكون خارج المكان المتواجد فيه، وأحست جيمسي الشعور نفسه. أبقت عينيها مثبتتين في فنجانها ولم تجرؤ على رفعهما وهي تدعو ربها بأن لا ينبس بكلمة. وأحست بالخوف والإثارة يمسكان بمعدتها. إنه رجل خطير وقوي، إضافة إلى أن حضوره في الغرفة يبعث طاقة محمومة، لا تستطيع جيمسي

تجاهلها، وفيما صوته المرتفع يمزق السكون الهادىء:

«هل أعجبتك... غرفتك؟» سأل بوضوح، وعيناه الرماديتان تنتقلان عليها ببطء، ابتلعت جيمسي ريقها ورفعت رأسها ببطء وثبتت عينيها الخضراوين المفعمتين بالحيوية عليه، بينما قلبها ينبض سريعاً في صدرها.

«إنها جميلة، شكراً لك.» قالت، قبل أن تخفض عينيها ثانية لتتفادى نظراته الحادة.

«حسناً.» قال ببرودة وهو يمشي نحو النافذة ونظر خارجاً إلى المروج الخضراء. ألقت جيمسي نظرة جانبية إليه، شعرت بنبضات قلبها تتسارع كلما اقترب منها أكثر. كان يشبه بركاناً على وشك الإنفجار. عادت سارة إلى الغرفة، قاطعة الصمت غير المريح:

«هاك الفنجان.» بكت وهي تناوله بعض القهوة وتحاول الاعتذار ولكن نظرته الحجرية التي رمقها بها، جعلتها تدرك أنه لا يزال غاضباً. تجهمت قسماته وفمه كان منطبقاً.

«روس، أنا آسفة...» ابتدأت الكلام ولكنه رفع يده بسرعة لإسكاتها قبل أن تتم جملتها.

«سوف نتباحث في هذا الأمر في ما بعد.» أخذ الفنجان وذهب من الغرفة والغضب جليٌ في كل خطوة. شعرت جيمسي بالأسف لسارة وهي ترى، عينيها قد اغرورقتا بالدموع. تذكرت كيف بحثت بوفاء عما يستحسنه تود، وهي ترغب في فعل أي شيء لاسعاده، إن خيال تلك العطلة المشؤومة اخترق بذاكرتها. كانت صغيرة وطاهرة ولكنها كانت تبدو يافعة وناضجة. إنها سعيدة لأنها عرفت حقيقته، ولكن هذه المعرفة سببت لها ألماً شديداً في ذلك الوقت. لقد

رأت في عينيه الداكنتين الغضب وتذكرت، اتهامه القاسي بأنها باردة، وكانت الإهانة الأخيرة عندما أحضر امرأة أخرى إلى غرفتهما. فرت جيمسي منه والدموع تملأ عينيها. لقد رفضت مرة وباستطاعتها الإحساس بالشعور نفسه البادي على وجه سارة الحزين.

«هيا، إنه ليس بهذا القدر من السوء، أنا متأكدة من أن غضبه سوف يفتر بعد هنيهة.» تمنت ذلك، وصوتها ينم عن إيمان راسخ، أكثر مما تشعر به في الواقع.

«إني لم أره غاضباً إلى هذا الحد. إنني متأكدة من أنني لست السبب الوحيد.» قالت سارة بحزن وهي تجلس إلى جانب جيمسي.

«لا، ربما لديه مشكلات أخرى.» أكدت جيمسي وهي تعض برفق على شفتها السفلى. إنها تكاد أن تكون المشكلة الأخرى، والمسؤولة عن غضب روس. وفكرة مقابلة روس وهو بهذا المزاج بعثت الخوف في قلبها. «ماذا عن والديك، بالتأكيد إن الأمر عائد لهما؟» قالت جيمسي وهي بادية الاستغراب من كون شقيقها روس يسيطر على كل شيء.

هزت سارة رأسها: «لقد توفي كلاهما عندما كنت لا أزال صغيرة. وروس هو الذي يعتني بي منذ ذلك الوقت. حسناً، إنه يفعل عندما أكون في البيت، أما باقي الوقت فأرسل إلى المدرسة كرزمة غير مرغوب فيها.» قالت بشكل يدعو للشفقة.

فتحت جيمسي ذراعيها وأدنتها منها أكثر، وهي تتذكر كيف كانت تشعر عندما كانت طفلة. «أنا متأكدة من أنه ليس على هذا النحو، إنه ليس سهلاً لروس،

كوني عادلة، لقد كنتِ صعبة في الماضي.» ذكرتها جيمسي بذلك.

«أنا أعرف، ولكن علي أن أكون كذلك.» اعترفت سارة: «ولو لم أفعل ذلك فإنه لم يكن لينتبه إليّ.»

ضحكت جيمسي وهي تضغط على يد سارة، إنها بالتأكيد سوف تخبر روس، فكرت بحكمة. عليه أن يدرك أسباب سلوك سارة المتمرد. وأن لديها الخبرة الكافية عن الطفولة لتعرف الأذى الذي قد يحدث. استغرقت جيمسي وقتاً طويلاً لتكتشف ذلك، وتعيد بناء ثقتها بنفسها بعد كثير من المعاناة. تثاءبت جيمسي.

«أوه، إني أحس وكأني محطمة.» قالت ذلك وهي تضع ذراعيها فوق رأسها في محاولة لايقاظ نفسها.

«إني لا استغرب، فأنت مستيقظة منذ ما قبل الفجر. فكلتانا لا نستطيع أن نكون مثل روس، إنه يبقى مستيقظاً لفترة طويلة. لماذا لا تذهبين وتنامين الآن، يجب أن تكوني منتعشة ومستعدة لمحنة هذه الليلة؟» ضحكت سارة وابتسمت جيمسي. بالتأكيد إنه ليس بهذا السوء! فكرت، ولكن تعابير وجه سارة أكدت لها بأنه قد يكون أسوأ من ذلك.

«ربما تكونين على حق، أنتِ لا تمانعين، أليس كذلك؟» سألت بلهفة، وهي لا تريد أن تبدو غير مهذبة.

«لا، اذهبي أنت، أما أنا فلدي الكثير لأفعله.»

ابتسمت جيمسي بامتنان وتركت سارة. صعدت السلم بحذر وهي تلقي نظرة سريعة في اتجاه غرفة مكتب روس، ولكن الباب بقي مقفلاً. استلقت جيمسي على سريرها، عقلها

في اضطراب. ولسبب ما، شعرت أنها وحيدة وخائفة. تمنت أن تعود إلى وطنها في المدينة الصغيرة التي تعرفها جيداً. ولكنها بدت لها بعيدة جداً، هناك حيث الشمس الدافئة والناس الصادقون. إنه مجتمع منغلق ومترابط، عدد سكانه لا يتجاوز الثلاثة آلاف نسمة، وهي، لا تعمل في مكتب البريد فحسب، بل في المطعم الصغير أيضاً، وهي تعرف الجميع. استمتعت بالأستلقاء واستعراض المشاهد المألوفة لديها، قبل أن تستغرق في النوم، وابتسامة تصميم ترتسم على شفتيها الناعمتين.

لم تنم جيمسي جيداً كما تمنت، ولم تعرف هل هو هواء الصباح الباكر أم الأحداث المحمومة التي مرت بها هي التي سببت لها هذا التعب، أم ان السبب يعود لهذا السرير الضخم المريح والمترف الذي لم تعتد عليه. لقد استيقظت بعد الساعة الخامسة وكانت حائرة في البداية إلى أن تذكرت أين هي. أسرعت إلى الحمام وملأت المغطس. وضعت كمية كبيرة من صابون الحمام المعطر في المغطس، انها تحب أن تبقى فيه لوقت طويل، أغمضت عينيها وأخذت تستنشق العبير المنتشر. تنهدت عندما تذكرت روس وتمنت أن يكون مزاجه قد تحسن، ولكن ذلك بدا بعيد الاحتمال.

بعد الانتهاء من الحمام، أخذت تفتش بصعوبة عن شيء مناسب ترتديه، فهي لم تحضر معها سوى فستان واحد بسيط، تناولته من الخزانة، وضعته على السرير. إنه أخضر اللون يميل إلى الزرقة، كان ذلك تبذيراً في الواقع لكن السيدة في المتجر أصرت عليها لكي تجربه، وبدأت تطري جماله وكأنه صنع خصيصاً لها. وهذا أكيد. إذ أن لون الرداء

الأخضر يبرز لون شعرها ويعكس اللون في عينيها. تأملت جيمسي نفسها في المرآة الطويلة وهي تلتفت ببطء، للتأكد من أن الرداء مناسب. سرحت شعرها وجعلته ينسدل في أمواج فوق كتفيها النحيلتين. إنها لا تضع مساحيق التجميل، وفي الواقع، إنها لا تناسبها. وبدت جيمسي تنبض بالحياة، فكانت وكأنها زنبقة ربيعية. سمعت قرعاً على الباب ووثبت من مكانها.

«أدخل.» صاحت، محاولة أن تظهر ثقة في نفسها.

«إنها أنا.» ابتسمت سارة وهي تطل برأسها من خلف الباب. «أوه، إنك رائعة، انتظري حتى يراك روس!»

ابتسمت جيمسي بشيء من الحذر، فهي بالتأكيد لا تريد أن تعطي روس انطباعاً بأنها تحاول اغراءه.

«اتيت فقط، لانكرك بأن تذكريني أمامه بكلام حسن. لماذا لا تأتين الآن وتحولي مزاجه نحو الأفضل؟»

عبست جيمسي، إذ بدا لها، أنه أمل ضعيف في امكان تحويل مزاج روس نحو الأفضل، في الحقيقة إن أي شيء، قد يزيد من غضبه.

«كلا، يا سارة، عليك أن تذهبي وتشرحي له أولاً عن خداعك، وإلا فإنه بالتأكيد لن يحاول الإصغاء لأي شيء تقوله.» شرحت جيمسي مؤكدة.

امتعضت سارة، ثم طأطأت رأسها: «حسناً، أعتقد أنكِ على حق. سأذهب الآن، ولكن أرجوكِ الاسراع في النزول لانقاذي.»

«أوقفي هذه الدراما، إنه ليس سيئاً لهذا الحد.» وبختها

جيمسي، ولكن هيئة روس القاسية وعينيه الباردتين كالثلج مرت في خاطرها وسرت في جسدها رجفة لا إرادية. نظرت إليها سارة نظرة شك، واختفت من الغرفة.

أمضت جيمسي الدقائق العشر التالية تذرع المكان جيئة وذهاباً، شنّفت أذنيها سماع أصوات مرتفعة. إنها لا تستطيع سماع شيء، ففي بيت مبني من الحجر الصلب بالإمكان اغتيال شخص من دون أن يسمع أحد. حاولت جيمسي طرد هذه الأفكار الغريبة من رأسها ولكن الآن، بينما خيم ظلام الليل وعصفت الرياح الشمالية حول البيت، وبدا كل شيء ينذر بالشؤم، تركت غرفتها وأسرعت تهبط السلالم، محاولة تجنب العيون المبحلقة في الصور التي تزين الجدران. باستطاعتها أن تشعر منها الرفض من وجود شخص من آل ماكدونالد في هذا البيت.

لقد كانت مبتهجة لوصولها إلى البهو وكان حسن الإضاءة، والأزهار الكثيرة كانت موضوعة بطريقة متناسقة، لطفت من ضخامة البهو. انسلت نحو غرفة المكتب؛ باستطاعتها سماع صوت روس، كان بارداً، قوياً، يتضمن شيئاً من التهديد. كانت سارة صامتة وتعطي إجابات خاطفة لسؤالاته. بدأت جيمسي تذرع المكان جيئة وذهاباً، تشعر بتوتر، وهي لا تدري أتقرع الباب أم لا. وأخيراً وبعد أن وجدت الشجاعة الكافية رفعت يدها نحو الباب، وفي تلك اللحظة الحاسمة فتح الباب، وانتصب أمامها روس وهو يحملق فيها.

يبدو روس جذاباً في ثيابه العادية، ولكنه الآن، وهو يرتدي الثياب الرسمية للعشاء، فإنه يبدو ساحراً. جيمسي

كانت غير مستعدة للأنطباع الذي تركه. فالبذلة القاتمة التي كان يرتديها تلائمه تماماً. القميص الأبيض الناصع الملاصق لجسده يؤكد صلابته ويظهر صدره الممتلىء، ومعدته المسطحة. بدت الأشياء الداكنة التي يرتديها كأنها تضيف طولاً إلى رجليه الطويلتين، كان يملأ الباب، وكل بقعة من جسده تظهره كحيوان خطير. قفز قلب جيمسي وخفق وتسارعت نبضاته. أرجعت رأسها إلى الوراء، مبعثرة شعرها على كتفيها، ونظرت إليه. وجهه كان قاتماً وجاهزاً للانفجار، وعيناه غاضبتين.

«أعتقد أني سمعت أحداً ما، يستطلع، متطفلاً، في الخارج، وأنا متأكد أنه ليس من الخدم.» قال ببرودة.

«إنك تريد أن تراني، تذكر؟» قالت جيمسي بشكل لاذع ورجعت بحذر، رافضة الاستسلام لشعور بالرعب بدأ يجتاح داخلها، تورد وجهها من الخجل، فقد ضبطت وهي تتنصت. تجاهل روس هذه الملاحظة واستدار باتجاه المكتب.

«بإمكانك الذهاب، يا سارة، ولكن تذكري ما قلته، هذه هي فرصتك الأخيرة. وإذا حاولت المزيد من الخدع والألاعيب فستدفعين الثمن باهظاً، إني أعني ذلك.» أضاف مهدداً. وسكن روع سارة وقد أصبحت خارج الباب. توقفت عنيهة وهو يكلمها وهي تنظر إليه، وكادت جيمسي أن تبكي. هل هو أعمى لهذه الدرجة بحيث لا يستطيع أن يرى الإخلاص في عينيها؟

«يا آنسة ماكدونالد، هل تتفضلين بالدخول؟» قال وهو يعود إلى مكتبه، وجلس وراء مكتب كبير. وتبادلت جيمسي وسارة نظرات الصداقة المشتركة.

«الآن.» صاح روس بنبرة عنيفة. عبست جيمسي، إنها ليست طفلة وهو بالتأكيد لن يكلمها على هذا الأساس. عدلت كتفيها ومشت وهي تواجه روس بهدوء يخفي مشاعرها الحقيقية.

«يا سيد ستيوارت...» ابتدأت، ولكن الكلمات توقفت فوق شفتيها عندما رأت التعبير البارد على وجهه. حملق بها مستمتعاً، ولم يحاول اخفاء تصرفه. شعرت جيمسي بالغضب يغلي في داخلها، هل هي مجبرة على تحمل هذا التقييم الانتقادي؟ ابتسامة شاحبة ارتسمت على شفتيه ومال برأسه بكسل.

«تأنق رائع، الأخضر يلائمك.» قال بصوت دافىء. رفعت جيمسي حاجبيها ببرودة.

«لا تطري نفسك، لم أرتد هذا الفستان لأجلك. إنه الوحيد الذي أمتلكه.» قالت بصوت غاضب وصارم.

«يا للشفقة، فلدينا ضيوف يصلون غداً، وأتوقع أن ترتدي شيئاً للمناسبة.» أخبرها بنعومة وعيناه مثبتتان عليها. ثم خيم صمت لم يدم طويلاً. عضت شفتها وهي تفرك يديها ببعضهما بعضاً بحرارة وهدوء.

«إني أرى موقفك عدوانياً.» ردت بحدة وهي تنظر إليه نظرة غضب.

«حقاً؟» سأل، وهو ينظر ضاحكاً وبلطف.

«نعم.» قالت وعيناها تبرقان بومضات من الغضب. «إنك متكبر جداً، تدعوني إلى هنا وكأنك تمتلكني، ولسنا، في العهد الفيكتوري، مضى ذلك منذ أكثر من قرن.» قالت محاولة أن تبدو وقحة، ولكنها توقفت سريعاً عندما ضاقت

عيناه وأحست بالجفاف في فمها. زم روس فمه وبدا لها، أنه سر لكونه أرعبها، وأخذ ينقر بأصابعه على الطاولة بحركات سريعة وهو يحاول جاهداً المحافظة على هدوئه. لقد شعر بأن الغضب قد بلغ حده. إنها مزيج فريد من نوعه، قوية، معتمدة على نفسها، وفي الوقت نفسه رقيقة كطفلة، مزيج معقد، لفت انتباهه.

«يا آنسة ماكدونالد.» تشدق بشدة، وهو يدفع بأفكاره الداخلية إلى أعماق عقله، بينما يتعامل مع الحالة التي بين يديه: «لقد أخبرتني سارة بقصة خيالية بأنك لا تعرفين شيئاً عن حقيقة هويتها. لا شك بأنها قصة صغيرة أخترعتماها بعد الظهيرة...»

«هذا ليس صحيحاً؛ فقد كانت ترتدي شعراً مستعاراً، لا شيء منها يشبه الصورة التي أريتني إياها.» أشارت بغضب وهي تلاحظ بأن عضلات وجهه ترتعش. كان واقفاً على قدميه بثبات. شعرت جيمسي بالخطر، وتراجعت خطوات إلى الوراء. أتى نحوها، بخطى بطيئة ومدروسة، تظهر كل واحدة منها، قوته الهمجية، وقوته الحيوانية ظاهرة في كل خطوة من خطواته.

«صراحة! هل تعتقدين انني سوف أصدقك؟» استهزأ بحرارة. شعرت جيمسي بحرارة تحت نظراته الوقحة. وأحست بنظرات التقييم المزعجة وأحست بالخوف من ذلك، فلم يؤثر فيها رجل على هذا النحو. رجعت خطوة أخرى إلى الوراء، وهي تريد أن تضع مسافة آمنة بينهما.

«لم لا؟ إنها الحقيقة!» قالت بغضب.

«الحقيقة!» قال باستهزاء، وعيناه تبرقان بومضات

الغضب. «الحقيقة، ماذا تعرفين عن الحقيقية؟» قال مزمجراً وصوته أصبح أشد صلابة.

«بالله عليك، لا نريد العودة لذلك، غدر آل ماكدونالد، فترة غبية من التاريخ؟ دعنا على الأقل نكون عقلانيين.» قالت بغضب وقد شدت قبضتها إلى جبينها.

«أنا لا أشير إلى التاريخ القديم ولا أحكم على عشيرتك، ولكن على سلوكك الحالي.»

ابتسمت جيمسي بعذوبة وردت بشكل تحذيري: «إن سلوكك لم يكن أبداً، مثالياً.»

«لقد كنت عقلانياً.» قال روس، ثم خفت صوته وهو يتابع: «أعطيتك كوخاً ولم أطلب منك سوى السكوت عن اسمك. أخبرتك عن أختي.» توقف قليلاً وكأنه تمنى لحظة الصمت. «بينما خباتها عني. أخذتك إلى البحيرة لأريك الجمال وأنت...»

قاطعته جيمسي بسرعة، وعيناها تشعان بالغضب، تكره بمرارة ذكر هذا الاتهام. «أنا آسفة لما جرى في البحيرة، لماذا لم تخبرني عن النسور...»

«هل أعطيتني فرصة.» رد سريعاً. «ولكن شيئاً أهم من النسور حدث في البحيرة.» نكرها وهو يقترب منها أكثر فأكثر. تراجعت جيمسي خطوتين إلى الوراء بسرعة وأصبح ظهرها ملاصقاً للباب.

«أفضل عدم مناقشة هذا الموضوع.» قالت بحدة وعيناها تسترخيان عندما اقترب منها أكثر، وأصبح تنفسها سريعاً أكثر وأكثر.

«سواء ناقشناه أم لا، فقد حصل. وهذه الحقيقة لا يمكن

انكارها، على الأقل، من قبلي. لقد كانت حادثة غير مريحة ومن الأفضل نسيانها.» وصف مشاعره، وعند هذه النقطة تسارعت نبضات قلبها وهي تعرف أنها طالما بقيت هنا فإن عليها الإبقاء على مسافة أمان بينهما. تنهدت بصمت، عندما استدار وعاد إلى مكتبه. بقيت ثابتة في مكانها، وهي تحملق فيه. نظر إلى أعلى، وبان على وجهه تعبير غريب.

«لا أعتقد بأن لدي المزيد لأقوله.» أخبرها بحدة، ولم تكن جيمسي بالشخص الذي يحب أن يعامل كخادمة.

«لكن أنا عندي! قرعت سارة بابي في وقت متأخر في تلك الليلة... لم يكن لدي فكرة عمن تكون. أخبرتني قصة مقنعة فدعوتها إلى الدخول. وحاولت معرفة المزيد عنها على غير جدوى. وربما فكرة، أنها تريد أن تصبح طالبة مسرح، هي واحدة من أفكارها الجنونية التي لا جوهر لها، ولكنني أعتقد على الأقل أن عليك أن تأخذها على محمل الجد.»

نظر إليها روس بذهول وضاقت عيناه وبان الغضب البارد في نظرته القاتمة. فقد اعتاد أن يقدم النصح للناس لا أن يتقبل النصيحة.

«أأخذ فكرة كونها تصبح ممثلة على محمل الجد؟» ضحك باستهزاء يشع من عينيه وجيمسي لا تزال غاضبة.

«لا شيء مضحكاً في أن يكون لدى الانسان حلم، طموح.» أخبرته ببرودة. حملق فيها، دفعات من الألم انبعثت في وجهه، سرعان ما استبدلها بتعابيره المعتادة.

«كيف تتجرأين على اخباري عن شقيقتي؟» صاح بغضب وأصبحت ملامحه أشد جموداً وسخرية. تشجعت جيمسي بنظرته غير المستحبة، أفكارها تتجه نحو سارة.

إنها تدرك ماذا يعني أن تكون شخصاً غير محبوب، أن يكون لديك أحلام وآمال لا تستطيع تحقيقها، لقد تمنت في السابق الزواج وإنجاب أطفال من تود، ولكنه دمر هذه الأحلام، وأمامها الآن روس يحطم أحلام شقيقته من دون أن يجهد نفسه في التفكير كما فعل تود. هل كل الرجال يتشابهون؟ فكرت بمرارة، وهي مصممة على أن لا تسمح بحدوث ذلك لسارة.

«حسناً، لا بد من وجود أحد ما ليخبرك بأنها بعد وقت قصير سوف تكبر بما فيه الكفاية، لتترك بيتك ولن تراها ثانية بعد ذلك.» قالت جيمسي ذلك وهي مصممة على أن تجعله يستمع إليها. فمه بقي صارماً.

«وعلى ماذا يعتمد السيناريو الذي تقدمه الآنسة ماكدونالد؟» قال بازدراء وبصوت يسخر ضاحكاً. «إني ادرك النزعة الحديثة باشباع نزوة كل طفل ولكنني غير موافق، فأنا أؤمن بالتأديب والترويض.»

«حسناً، لديَّ الاعتقاد بأنك أصبحت تعرف أن هذا الاسلوب لا يفيد.» ردت بسرعة. «إنك تعترف لنفسك بأن عليها النجاح في المدرسة، ولماذا أنت تفكر على هذا النحو؟»

«لا أشك، أنك بصدد اخباري.» تنهد باستسلام من دون أن تهتز رباطة جأشه.

«الاهتمام! إنها تريد اهتمامك، حبك.» ابتسمت جيمسي بانتصار. روس يراقبها باستمتاع، يسمع بانتباه، يداه مطبقتان على بعضهما بعضاً وقد استراحتا على قمة المكتب.

«بالطبع إنها تفعل؛ فهي يتيمة كطفل صغير تلتصق بي لأي شيء، لماذا تعتقدين بأنني أرسلتها بعيداً إلى المدرسة في المقام الأول؟ إنه لأجلها. لأجل البحث عن العناية بها، سوف تتعلم كيف تبرر سلوكي الفظ.» أخبر جيمسي ببرودة.

«ليست لدي فكرة...» ابتدأت جيمسي وفجأة ارتبكت.

«إنك تفترضين أنني لا أفهمها أو ربما لا اعتني بها.» لوى شفتيه بابتسامة غير مألوفة. لقد كان مستحيلاً الإبقاء على نبرته الساخرة، شعرت جيمسي بأنها تتورد، لقد أخطأت الحكم عليه للمرة الثانية.

«المسألة هي أن سارة...» تلاشى صوتها، لا تستطيع إيجاد الكلمات المناسبة لقولها. ابتسم روس، ابتسامة حقيقية دافئة جعل معدتها تنقلب على نفسها.

«إني أعرف تماماً ما تحبه سارة، صدقيني، إنك تدافعين عن حالتها بفصاحة، وأريد أن أشكر اهتمامك.» أحست بدفء حقيقي في صوته وشعرت جيمسي بقلبها يخفق عندما أدركت أنها استحوذت على استحسانه. «تعالي، دعينا نتناول شراباً قبل العشاء، واتركي سارة لي.» أضاف. وقف وابتعد سريعاً عن مكتبه، ذكرتها حركته الرشيقة بقوته الحيوانية. كان إلى جانبها في لحظات، وتناول يدها واصطحبها إلى الباب.

ابتسمت جيمسي بامتنان، ورعشة مفاجئة من السرور سرت في عمودها الفقري. نظرت إليه فلاحظت هيئته الأرستقراطية وخصلات شعره غير المنتظمة، إنه يبدو الآن رجلاً لطيفاً ومهذباً، خاصة وهو يرتدي لباس السهرة للعشاء، وكان سلوكه هادئاً. كانت جيمسي تنظر بحذر

عندما أمسكت يده بيدها وأحست بالدفء في لمسته بعد الحادثة التي جرت في البحيرة. أدركت أن بإمكانها أن تستجيب للرجل المناسب. ابتعلت ريقها، إنها لا تستطيع تحمل فكرة أن تصبح متورطة مع روس، على الأقل ليس قبل أن تبرىء إسم عائلتها.

في تلك اللحظة استدار روس وحملق بها. كانت هناك ومضات في عينيه، لم تكن جيمسي متأكدة لكنها بالتأكيد اثارتها. ردت ابتسامته بابتسامة لطيفة ولكنها كانت ما تزال غير قادرة على فعل شيء سوى التساؤل عمن يكون روس ستيوارت الحقيقي!

الفصل الخامس

ارتفعت معنويات جيمسي عندما أمسك روس يدها وقادها إلى غرفة الجلوس، وهي غرفة جميلة توحي بالأبهة والعظمة. طغت مدفأة حجرية رمادية على جو الغرفة فيما يحترق الحطب بداخلها. الغرفة كبقية البيت، مفروشة بالأثاث الجميل، لكن أقل فخامة، ولها أناقة رائعة.

نظرت جيمسي حولها، مفتونة. الفرق كبير بين ما تراه هنا وبين بيتها الخشبي الصغير في أوستراليا. إضافة إلى ذلك كان الجو دافئاً ومستحباً. رمقت جيمسي سارة، بابتسامة مشعة عندما دخلت، وجلستا قرب النار. رفعت سارة حاجبيها وبدا الألم في عينيها.

«شكراً لك.» قالت مبتسمة وهي تتناول كوب الشراب الذي ناولها اياه روس. للحظة تلامست يداهما وسحبت جيمسي يدها بسرعة وكأنها تحترق. وجهت نظرها نحوه، ولكن روس لم يعرها أي اهتمام، وبقيت عيناه زائغتين وأدركت الآن، أن هناك شيئاً ما بينهما. وهي تشعر به بقوة، كما يشعر هو به.

العشاء كان لذيذاً، أكثر بكثير مما تصورت جيمسي. كان هناك سمك السلمون الطازج الجميل مطهواً بالليمون وصلصة المكسرات ثم لحم البقر المحلي، مطبوخاً بطريقة مثالية. مجموعة الخضار المتنوعة والمنتجة محلياً، ونكهتها الطازجة لا يمكن انكار أنها من أفضل ما تذوقته

جيمسي، على الإطلاق. وبعد العشاء كان هناك حلوى من القشدة والفانيليا المخفوقة.

سرت جيمسي لهذا العشاء المحبب، كما أنها وجدت شيئاً تستطيع التركيز عليه. وكان واضحاً أن روس لا يريد إضاعة الوقت بثرثرة تافهة، حاولت سارة مراراً، تشجيعه على الكلام ولكنها لم تستطع ذلك. فقد كانت أجوبته قصيرة وفظة.

«كانت الوجبة لذيذة، لقد استمتعت بها حقاً.» قالت جيمسي بعدما أخفقت في إخفاء حماستها لمدة أطول.

«حقاً؟» تساءل روس وهو يراقبها بعناية ومنتظراً لسعتها المبطنة.

«نعم، لقد عنيتها، كل شيء كان رائعاً، لقد عملت في مطعم كي أحصل على المال، لتغطية نفقات هذه الرحلة، وقد جربت جميع الأطباق المختلفة، ولكن هذه الوجبة كانت أفخمها.» قالت بحماسة وشهامة.

«الكل، من صنيعي.» ضحك روس، والاعتزاز واضح في صوته. «تعني أنك زرعتها؟» سألت جيمسي وكان من الصعب عليها أن تصدق أن روس مزارع وهي تراه أمامها بلباسه الرسمي الكامل. ابتسم لها بكسل، وبهرها شعاع من أسنانه البيضاء، وأحست بانكماش في معدتها.

«ليس تماماً، ولكنني أعرف بالضبط، كيف أساعد في يوم الحصاد. إني أمتلك معظم الأراضي حولنا، ولدي مستأجرون من المزارعين، وهم الذين يقومون بالأعمال الشاقة. و نزرع العديد من هذه المزروعات بطريقة عضوية، فهذه الخضار التي أكلناها الليلة، على سبيل

المثال، لها طعم مختلف، أليس كذلك؟» تساءل وهو يحملق بها.

أومأت جيمسي رأسها موافقة. إنه لمن النادر أن تراه بهذا الإسترخاء، ولكنه دائماً يبدو أكثر راحة في الهواء الطلق.

«هل تركبين الخيل؟» سألها وأجابته سريعاً.

«طبعاً.»

«إذن سآخذك في نزهة حول ممتلكاتي، إذا أحببتِ.» سأل.

«نعم، نعم، أنا فعلاً أحب ذلك، يا روس.» بعد ذلك، وكأنه قد أدرك انهما أصبحا أكثر صداقة، قال فجأة: «سأتناول قهوتي في غرفة المكتب. لا يزال لدي بعض العمل أرجو المعذرة.» وذلك أتاح لجيمسي أن تطلق تنهيدة ارتياح مسموعة.

«تبدين أنك تسيطرين على الموقف! هل ذكرت له مدرسة التمثيل؟» سألتها سارة بلهفة، وهي تناول جيمسي فنجاناً من القهوة القوية المنعشة.

أجابت جيمسي بعد تفكير، لأنها لا تريد اعطاءها آمالاً خاطئة، وفي الوقت نفسه لا تريد الآن، أن تمزق أحلامها. «إنه بالتأكيد ليس متلهفاً للفكرة، في الواقع، كان لطيفاً عندما طلب مني عدم التدخل في شؤون الغير.» قالت وهي تضحك.

قطب وجه سارة، وعيناها اليافعتان احلولكتا مع خيبة أمل. «أدرك ذلك.» تمتمت بهدوء. «ولكنه ليس سبباً للاستسلام، إذا كنتِ تريدين أي شيء، بقوة كافية، فعليك

أن تواصلي طلبه.» قالت وهي تشجعها، وفكرت في الوسيلة لاثبات براءة عائلتها.

«إنك على حق. أنا واثقة من أنني سوف أكون قادرة على اقناعه.» توقفت لحظة: «في النهاية.»

تحدثتا إلى وقت متأخر من الليل كصديقتين افترقتا، واجتمعتا بعد فترة طويلة.

«حان وقت النوم يا سارة، فلدينا ضيوف يصلون غداً.» أخبرها.

«من؟» صاحت بلهفة وهي تقفز من مقعدها.

«سوزان لاتس، وبعض الآخرين.»

«أوه، ليس سوزان.» تمتمت سارة وهي تعود إلى مقعدها.

«نعم، سوزان.» صاح روس بصوت صارم: «وأتوقع منك أن تعامليها باحترام. من المهم أن نكسب تأييدها وتأييد الآخرين إذا أردنا الإستمرار في العملية.» أمرها وعيناه يكتنفهما الغضب. رفعت سارة حاجبيها إلى السماء بخوف ساخر.

«روس، إنها مخيفة، متكبرة إلى أقصى درجة وهي تستمر في زيارتنا لأنها تأمل في أن...»

«سارة، إلى السرير.» قاطعها روس بصوت حاد يدل على أن عليها، إطاعته على الفور.

بدأت جيمسي بترك مقعدها، وليس عندها الرغبة في تمضية أي وقت معه، بمفردها.

«أرجوك، ابقي لتناول الشراب معي.» طلب منها فجأة نظرت إليه، نبرته الدافئة لا تتناسب مع تعابيره المتجهمة

لاحظت جيمسي الشحوب على وجهه، والتعب في عينيه، وضعفت إرادتها.

«كأساً صغيرة فقط، لأني تناولت كثيراً من الشراب على العشاء.» قالت وهي تجلس على المقعد. أحضر روس شراباً لهما، ووضع شريط موسيقى على آلة التسجيل المخبأة بذكاء خلف خزانة صينية كي لا يفسد منظرها روعة الغرفة. تجمدت جيمسي في مكانها وهو قادم نحوها، وهي تصلي أن لا يجلس بقربها، ومع ذلك شعرت بخيبة أمل، عندما اختار الجلوس على الكرسي المقابل لها.

«لن أزعجك بتطفلي غداً لأن عندك زائرين.» قالت وهي ترتشف الشراب. انتظرت، وهي تتوقع عدم موافقته، بدلاً من ذلك أومأ برأسه إيجاباً.

«نعم، تصرفي هكذا قدر المستطاع. إني أحاول أن أجذب اهتمامهم إلى مشروع من ابتكاري، إنه مركز تراثي، يبيع ابتكارات ومنتجات المزارع المحلية. أريد بناء العديد من الأكواخ الخشبية، لأجل السياح الذين سيفدون ليتمتعوا بهذا التراث.»

توقف قليلاً ينظر إلى جيمسي، إنه موضوعه المفضل ولكنه يعرف أنه ينزع إلى إزعاج الآخرين بالضجر. إنه ليس بحاجة للقلق، إذ بدت جيمسي مفتونة. رمقها بابتسامة خفيفة جعلت معدتها تنكمش بشكل لا إرادي.

«ربما، سيستمتعون بصيد السمك والرسم المائي وقد يرغبون بتعلم شيء من تاريخ اسكوتلندا، أما الايجابيات الحقيقية فقد تكون البيئة. إذا كان بإمكاني أن أروي للناس كيف أن إنتاج الأرض يكون أكثر بكثير عندما تزرع

عضوياً، أريهم الأنهار المملوءة بالأسماك، بسبب عدم وجود سموم، تبيدها، وهذا هو الدرس الحقيقي.» أضاف بانتصار.

ابتسمت جيمسي وهزت رأسها موافقة، لا يمكن لأي شخص إلا أن يتأثر بحماسه بالحكمة من كلامه. بعدها لزما الصمت والموسيقى الرقيقة تنساب حولهما، لقد كانت إحدى أفضل الألحان التي تحبها جيمسي. انحنت إلى الوراء وأغمضت عينيها وانجرفت في بحر من التخيلات. إنها لم تشعر بأنها استرخت من قبل كما تشعر الآن. كانت أعصابها متوترة منذ لقائها بروس ستيوارت، وعلى الرغم من ذلك، فإنها تجلس بحضوره، وهي تشعر كلياً بالأمان ومستريحة بشكل غريب مع رجل يتلاعب بعواطفها بغموض.

وفي لحظات خلدت إلى النوم، غير واعية للتدقيق الغريب الذي كانت معرضة له. عندما استيقظت وجدت النار قد خمدت ولم يتبق سوى كومة من الرماد، والهواء في الغرفة كان بارداً. ارتعشت جيمسي، وعانقت جسمها، ثم نظرت إلى ساعتها، إنها بعد الواحدة. وقفت، تريد الذهاب إلى السرير، مستغربة كيف أن روس لم يوقظها. ثم رأته، غارقاً في كرسيه، واستطاعت تمييزه بصعوبة بالظل. كان قد فتح قميصه وترك ربطة عنقه معلقة في فوضى. لقد كشف القميص المفتوح رقبته والقليل من شعر صدره غير المرتب.

ارتعشت جيمسي ثانية عندما نظرت إليه، ولكن هذه المرة ليس من البرد. إن ضراوة هيئته القاسية قد لُطفت بالنوم، وجسمه المستغرق في نوم عميق لا يزال محتفظاً بقوته ولكن تهديده لم يبق على حاله.

سارت جيمسي إليه ببطء، حائرة إذا كان من الحكمة إيقاظ عملاق نائم. هزته من كتفيه برقة وهي مندهشة من قوتهما، حتى وهو على هذه الحالة من الاسترخاء. تمتم هامساً، وتراجعت جيمسي إلى الوراء، وقلبها يتسارع نبضه. ابتلعت ريقها بصعوبة، معاتبة نفسها على ضعفها، وحاولت ثانية.

«روس؛ روس.» نادت برفق وهي تهز كتفه. تململ ثانية وبدأ يتحرك عن كرسيه، محاولاً أن يعدل من نومه ليصبح أكثر ارتياحاً. بدا بعيداً عن العالم، وجيمسي لا تستطيع أن تفعل شيئاً لايقاظه. نادت في يأس: «روس، روس.» ثم أكثر إلحاحاً: «حان وقت النوم.» فتح عينيه على الفور وافتتنت جيمسي بإشراقتهما.

«هل هذه دعوة؟» سأل وابتسامة تعلو فمه. تراجعت إلى الوراء، مذعورة عندما بدأ قلبها يخفق بقوة في صدرها. انتزع يدها وشدها نحوه.

«دعني أذهب.» انفجرت غاضبة عندما تمالكت نفسها، وأطلق ضحكة مدوية من أعماقه، وعيناه تشعان بأضواء شيطانية.

«إنك لن تتراجعي بكلمتك، أليس كذلك؟» قال بتحدٍ ساخر عندما ضرب إبهامه برقة فوق نبضها المتسارع، مما زاد من انفعالها لدرجة أجبرتها على التركيز على تنفسها. ما كانت تستطيع حراكاً أمام قوته. سرت رعشة مفاجئة في عمودها الفقري، وأدركت جيمسي ضعفها.

«إني ذاهبة إلى فوق، الآن.» قالت وهي تحاول إخفاء الرجفة في صوتها وغير راغبة في نكر السرير ثانية.

ارتفع حاجب روس بتحدٍ، ولمعت اسنانه عندما بدأ بضحكة هادئة.

«الذهاب لفوق إلى أين؟» سألها بصوت مرتفع ومملوء بالهزل. إن دفء ابتسامته جعل الدم يسرع في عروقها.

«دعني أذهب.» قالت بعزم وهي تسحب يديها بعيداً عنه متجنبة نظرته الفولانية. أرجع روس يديه في استسلام هادىء تاركاً جيمسي تبتسم بانبهار.

«كم أنتن متقلبات أيتها النساء.» قال بازدراء: «لقد كنت مهذباً بما فيه الكفاية لأقبل دعوتك، ثم غيرتِ رأيك.» وهز كتفيه القويتين بكسل.

«إنك تعرف تماماً...» ابتدأت جيمسي، ثم ادركت عدم جدوى مناقشته، والفرح الذي سوف يغمره إثر غضبها. دارت على نفسها وتركت الغرفة بوقار. إنه يعلم بتأثيره عليها وكرهت جيمسي نفسها لاستجابتها له.

لم يكن النوم سهلاً تلك الليلة، فأحلام جيمسي كانت مليئة بخيالات روس، وضحكة الازدراء تبدو وكأنها تلازمها، وأنها اعتادت على الغدر. بعد هذه الليلة غير المريحة استيقظت جيمسي باكراً. السماء كانت صافية وتعد بيوم مشمس، إنه البقية الباقية من الصيف. استحمت جيمسي بسرعة وحبكت شعرها بضفائر ونظرت إلى خزانة ثيابها الخالية، سحبت بلوزة وسروالاً، بنياً فاتحاً.

وبما أن الوقت لا يزال بعد السادسة بقليل، قررت أنه لا يزال باكراً للنزول، لذا وقفت تتأمل من النافذة، مستعرضة الحدائق الأنيقة والمستنقعات الواسعة. كانت الأرض مليئة بزهر الخلنج الأرجواني، ملطفة المناظر الطبيعية الريفية

القاحلة. بعدها لاحظت شيئاً بعيداً عنها من حيث المسافة. لم تستطع تمييزه، يبدو وكأنه بيت من نوع مختلف، يظهر وكأنه حصن. إنها تحب ارتياد الأماكن القديمة، ومنّت نفسها بزيارته عندما تسنح لها الفرصة.

استلقت جيمسي على سريرها مغمضة العينين. يبدو أنها قد عادت للنوم لأن الساعة كانت بعد الثامنة عندما استيقظت ثانية، وكان هناك ألم خفيف في أسفل رقبتها. فركت جيمسي رقبتها، إن الكثير من الشراب لا يتوافق مع طبيعتها. تمتمت، وهي تقف وتفرك عينيها نتيجة إشراقة شمس ذلك اليوم. بدأت تشعر بالتحسن بعد أن غسلت وجهها بالماء البارد. تناولت حبتين من الأسبرين وقررت، أن نزهة في الخارج في الهواء النقي، من المحتمل أن تزيل وجع رأسها. هواء الصباح كان لذيذاً ونقياً ومنعشاً، ولم تشعر بالدفء الذي إعتادت عليه. في بعض الأحيان، في الصيف في أوستراليا يصبح الجو حاراً جداً، بشكل يستحيل معه التنفس عميقاً في الخارج، فالهواء يكون ساخناً جداً. أخذت جيمسي نفساً عميقاً آخر وهي ترمي بكتفيها إلى الخلف وتغمض عينيها لتتذوق برودة هواء اسكوتلندا.

«صباح الخير. هل هذه بعض التمارين الحديثة؟» قال روس بصوت مرتفع وحاد.

فتحت جيمسي عينيها وأنزلت يديها. كان روس يرتدي سروالاً من الجينز الضيق يبرز وركيه ويظهر معدته. وكان يتعل في رجليه القويتين حذاء عالياً، أخضر اللون وتميصاً أزرق باهتاً، يبدو وكأنه يعكس زرقة عينيه.

«لدي القليل من الألم في الرأس.» أجابت بسرعة متجنبة

عينيه.

«لست مندهشاً، ما كان يجب أن تشربي شراباً أقوى أو أقدم من قدرتك والشراب الذي شربته بالأمس، معتق منذ خمسين سنة.» صرح بذلك بجفاف، واللهو واضح في ابتسامته الملتوية، المرسومة على شفتيه. ودفع إلى الوراء خصلة من شعره الأشقر الكثيف، انسدلت على وجهه الوسيم.

«لم يكن لدي أدنى فكرة أنك في ذلك العمر، يا روس.» ردت سريعاً وابتسامة عذبة على وجهها.

«أنا لا، ولكنني قوي.» علق ببرودة وعيناه تجولان عليها وتقيمها.

«حقاً؟» سألت جيمسي ساخرة، ثم تجمدت وهو يقترب منها ويخفض رأسه نحوها، أخذت نبضات قلبها تتسارع بشدة وبشكل كانت متأكدة من أنه يسمع دقاته المسعورة.

«صدقيني.» همس برقة في أذنها. ابتلعت ريقها وتحركت إلى الوراء برفق ولاحظت ابتسامة الارتياح على وجهه المتكبر، عندما فعلت ذلك وأكدت على نفسها أن لا تخاف منه ثانية.

«ماذا ستفعلين اليوم؟» سأل مغيراً الحديث، بسرعة، بابتسامة المنتصر. «إني ذاهبة لزيارة كاميرون، فهو يعتقد بأن لديه شيئاً قد يسرني.» أجابت بسرعة وتمنت لو أنها لم تخبره. تصلب وجهه بقساوة غامضة ونظرة احتقار باردة لمعت في عينيه القاتمتين.

«هل تدركين؟ إنك لا تزالين تضيعين وقتك في هذا الموضوع.» قال بصوت عالٍ.

أجابت جيمسي وهي تتمنى تغيير الموضوع وأشاحت

بنظرها نحو المبنى الرمادي الذي رأته في الصباح: «إني أفكر بالذهاب لرؤية ذلك المكان. ما هو؟» سألت، بيأس، وهي تحاول تهدئته. لم يقل شيئاً، للوهلة الأولى. ثبت عينيه على البرج الرمادي المرئي من المسافة الأفقية أمامه، ثم لوى شفتيه بابتسامة هزلية وتكلم بصوت مهيب، هادىء ومهذب:

«لا تذهبي إلى هناك، إنه خطر. فهو أنقاض خرائب قديمة، كان بيتاً جميلاً، بكل ما تعنيه الكلمة، لقد كان أكثر جمالاً من بيتي، ولكن القرويين هدموه حجراً على حجر ولا أحد يجرؤ على الذهاب إلى هناك.»

انتابتها رعشة لا إرادية بينما استمرت بالنظر في الاتجاه نفسه.

«كم هو مخيف.» همست. «وماذا حدث للعائلة؟» سألت وهي تواقة لمعرفة المزيد.

«لقد أعطوا بيتاً جديداً، وأرضاً جديدة، وكان ذلك كل ما يستحقون.»

ابتسم بقساوة، ومشى بعيداً بسرعة، وقدماه تخبطان بقوة على الأرض المفروشة بالحصى. بقيت جيمسي مسمرة في مكانها تحملق فيه. ثم التفتت لتنظر إلى الخرائب حين رأت رجلاً يقترب ويتكلم مع روس. لم تستطع جيمسي أن تمنع نفسها من استراق السمع واستمعت إلى الرجلين يتكلمان بينما تدعي بأنها تستمتع بهواء الصباح المنعش والمناظر الجميلة.

«ليس جيداً، يا سيدي، لقد وصلت نتيجة فحص التربة وتنص، على أنه لا يزال هناك بعض الآثار، فكل المنطقة

يجب أن تترك لسنة أخرى. ولا أستطيع تحمل ذلك.»

وعلى الرغم من الثقة في صوت الرجل فقد استطاعت جيمسي ملاحظة القلق. راقبت ردة فعل روس بمتعة وفوجئت عندما وضع يده القوية على كتف الرجل الآخر، دلالة إلى الصداقة بينهما.

«هيا، يا آندي، تحمل سنة أخرى؟ إنك تعرف خططي.» قال ولاحظت ابتسامة المكر على وجهه على الرغم من المسافة بينهما. ابتسم آندي لأنه اكتسب ثقة روس ستيوارت.

«نعم، فعلت ذلك، إنه ليس الشيء الذي لا أوافق عليه. الزراعة العضوية هي أحسن بكثير للأرض، ولكن الحقول القاحلة لا تستطيع اطعام أطفالي وترضي بريدجيت.» أخبر روس بجدية.

«أنا متأكد أن باستطاعتي إقناع بريدجيت...» بدأ روس بالإجابة وابتسامة عريضة مرتسمة على وجهه. سحب يده من على كتف الرجل واستدار لمواجهته.

«الأسياد، لن يملكوا هذا الحق بعد الآن، سأذكرك، روس.» قاطع آندي ضاحكاً: «صراحة! ربما تألف ذلك أكثر مني.» قال بحزن.

تغيرت ملامح روس، واستطاعت جيمسي أن ترى أنه أصبح أكثر جدية.

«لا شيء خطأ، أليس كذلك، يا آندي؟» سأل بصوت دافيء ومقنع. همهم آندي بجواب مرتبك، وابتدأ الرجلان بالمشي بعيداً، مستغرقين في محادثة خاصة جداً. انتظرت جيمسي عودة روس ولكن المحادثة كانت طويلة ومضى وقت قبل أن

ترى شكله المألوف، يخطو سريعاً نحو البيت.

«أتزالين هنا؟» صاح روس بصوت مزعج، وكأنه يطلب إيضاحاً.

«نعم.»

«لا أستطيع شيئاً إلا التساؤل...» توقفت قليلاً، غير قادرة على إيجاد الكلمات المناسبة من غير أن تدعه يعرف أنها استرقت السمع.

«ماذا؟» قال روس وقد نفد صبره بشكل واضح.

«ذاك الرجل، هل كان لديه بعض المشكلات.» سألت بتردد.

نظر إليها روس مفكراً، ثم هز رأسه ببطء. «مشكلات شخصية. كي يصبح المرء سيداً، يتطلب الأمر أكثر من مجرد امتلاك الأرض. إنني مسؤول عن سعادة هؤلاء الناس بطرق متعددة. إنهم يعتمدون علي.» قال بنبرة تفاخر، شعرت جيمسي نجاة بإعجاب نحو الرجل. هزت رأسها موافقة وهي تشيح نظراتها، خوفاً من أن تدعه يرى هذه النظرة في عينيها.

«سأذهب الآن، كاميرون سيكون في انتظاري.»

«حسناً، إني لا أشك أنه سيفعل.» أجاب روس بتجهم واستدارت جيمسي لتذهب عندما ناداها روس. «جيمسي تأكدي بأنك ستبقين بعيدة عن تلك الخرائب.» حذرها، والنبرة الفولاذية في صوته تتلاءم مع النظرة في عينيه.

إنها مصممة على معرفة المزيد، ربما كاميرون يعرف المزيد، فكرت، ثم، من دون التوقف حتى لتناول الإفطار، أخذت بالسير إلى بيت كاميرون.

وجدت عند وصولها أنه أمر صعب، فكاميرون هو كنز من المعلومات ولكن ملفاته غير منظمة. شهادات الميلاد

العائلية والأوراق القديمة اختلطت مع فاتورة الأسبوع الأخير للغاز. كانت مهمة شاقة ومحبطة ومما صعب الأمر هو ميل كاميرون لمزج الوهم مع الحقيقة. بعد أربع ساعات من العمل الشاق وصلت جيمسي إلى قدر كبير من المعلومات. آل ستيوارت وآل ماكدونالد كانتا العشيرتين الأقوى في المنطقة وتمتلكان العديد من الهكتارات وتتشاركان في المسؤولية عن مجتمع دنكلي. الملكة فكتوريا كانت غالباً تتوقف في دنكلي وهي في طريقها إلى بالمورال، وتحضر إلى الكنيسة القديمة الموجودة هناك. واعتادت العائلتان التنافس في ما بينهما للحصول على شرف استضافتها. حين أعلنت الملكة خطوبتها، سعت العائلتان لشراء أفضل المجوهرات كهدية زواج. لسوء الحظ، وقبل يومين من تقديمهما اختفى السيد دانكان ماكدونالد والجواهر الجميلة ولم يظهر ثانية!

«ولكن لا يوجد دليل حسي، قد يكون ذلك كله مجرد صدفة أليس ذلك ممكناً؟» قالت وهي تناشد كاميرون مساعدتها.

«نعم، إنه شيء غامض، من دون شك، ولكن آل ستيوارت استغلوا تلك الفرصة، افضل استغلال.» أضاف بمرارة وهو يسحب غليونه القديم: «لا يمكن السيطرة على القرويين، وقد عرف وليام ستيوارت ذلك، وشجعهم على هذا الأمر، إلى أن حملوا العصي وأسرعوا نحو بيت آل ماكدونالد، ودمروه إلى أن ساوى الأرض وذلك يعبر عن مدى غضبهم وحزنهم.»

انتبهت جيمسي على الفور: «وهل يمكن رؤية ذلك البيت من منزل ستيوارت؟» سألت وقد غضبت فجأة وهي تتذكر كلمات روس القاسية.

«نعم، بالفعل يمكن، إنه ملكي يا عزيزتي، وأنا ملقى هنا كالفقير المعوز، في كوخ يمتلكه آل ستيوارت.» نظر إلى النار باشمئزاز وجيمسي قطبت حاجبيها. فركت عينيها اللتين بدأتا تؤلمانها، هذه المعلومات جعلتها غاضبة جداً. تأوهت وهي ترفع نفسها من وضع الانحناءة على ركبتيها على الأرض وإنتصبت واقفة ومطت ظهرها. لم تشعر كم استغرقت من الوقت وهي تعمل، وها هي تدفع الثمن الآن.

«سأذهب الآن، يا كاميرون؛ لدي أكثر مما ينبغي انجازه في الوقت الحالي ولا أعتقد أن باستطاعتي أن أعمل أكثر.» قالت بتعب وعقلها مشوش بعواطف شتى، لا تستطيع إلا التفكير كيف يمكن أن تكون الحياة لولا آل ستيوارت.

المسافة التي مشتها، عائدة سيراً على الأقدام، لم تستطع أن تهدىء من غضبها وتعبها المتزايد والألم في رأسها الذي يضايقها وحاجتها إلى الطعام، كلها اجتمعت لتشعرها بعدم الراحة. تلاشى المشهد الجميل بالنسبة لها. لقد كانت غارقة في عالمها الخاص من الألم، ولم تدرك الروعة حولها. الغابات الكثيفة الممتدة على طول الطريق، منحتها بعض المأوى من أشعة الشمس وعيناها لا زالتا ناعستين. مشت جيمسي ببطء، في الطريق الملتوي، آملة أن يكون بمقدورها العودة إلى حجرتها غير متسخة. إنه ليس يوماً سعيداً، تأوهت وهي ترى مجموعة كبيرة من الناس خارج الباب الرئيسي. سيارات متعددة كانت متوقفة، جميلة وباهظة الثمن، بعضها سيارات سريعة وبعضها الآخر ألماني الصنع، لكن أغلبيتها كانت ذات أربعة دفعات للعجلات وهو ضروري في هذه المنطقة. كانت السيارات

غير مقفلة والحقائب مبعثرة على طول الطريق وأصوات التحيات تتطاير في الجو. فترت همة جيمسي، لا بد من وجود باب آخر، فكرت بغضب شديد وهي تستدير للذهاب.

«جيمسي، ها قد أتيت!» هتفت سارة بسرور: «تعالي دعيني أقدمك إلى الجميع.» قالت وهي تفتح ذراعيها إشارة للصداقة بينهما. إن جيمسي تعرف أنه من العار أن تستدير وتجري، عوضاً عن ذلك تمالكت نفسها ومشت نحو سارة وهي ترسم ابتسامة على وجهها.

لقد توقفت المحادثات منذ أن هتفت سارة والتفت الجميع لرؤيتها، مجمدين وكأنهم لوحة ثابتة. الشخص الأول الذي رأته، وكأنه ظل للسماء، كان روس. لقد كان بعيداً وبدا غاضباً لوصولها غير الملائم. رأته يتوجه نحوها بحركة بطيئة. أخذ رأسها يردد ما عرفته منذ قليل. الغضب يغلي في داخلها وعيناها شبه مشتعلتين من النار، سمعت روس يقول شيئاً ما ولكنها لم تستطع أن تفهمه. بدأ رأسها في الدوران، هزته لتحرر نفسها من شعور الدوار وثبتت عينيها على روس بتردد بارد.

«ماذا؟»

«جيمسي، سألت هل أنتِ بخير؟» وصوته يدل على الإهتمام، فكرت، وأدركت أنه يجب عليه، على الأقل أمام الناس، التظاهر. شعرت بطعنة من الكراهية نحوه وتمنت الثأر.

«نعم.» ردت بحدة واستدارت بعيداً عنه وهي تنظر إلى الآخرين. واحدة منهم كانت شابة دقيقة الملامح وجهها نحيل، وبدت مغرورة مما جعل جيمسي تشعر على الفور

بكراهية نحوها. كانت ترتدي معطفاً جلدياً أخضر مع منديل حول الرقبة وهي الثياب التقليدية للأغنياء في هذه البلاد.

«جيمسي، هل أستطيع أن أقدم لك السيدة كونّاوت؟ إنها ضيفة روس لمدة يومين مع ابنتها سوزان.»

إستطاعت أن تسمع الضحك في صوت سارة وهي تقدمهما وكأنها تدرك إحتمال ظهور مشاكل بينهما.

«إن جيمسي صديقة لنا من أوستراليا. هي تحب سكتلندا. وقد أخذها روس إلى البحيرة، هل تستطيعين تصديق ذلك يا سوزان؟» ثرثرت سارة وهي تمتع نفسها، مبتهجة. التفتت جيمسي لتنظر إلى سوزان، إنها ترتدي ملابس أنيقة مثل والدتها، ولكنها ليست نحيلة مثلها، إنها طويلة وقامتها ضخمة، بالتأكيد سيحصل لها مشكلة زيادة الوزن في حياتها المستقبلية، استغرقت جيمسي في التفكير وهي تصر على أسنانها بينما رمقتها سوزان بنظرة كراهية واضحة. تصافحتا ولكن تحيتهما كانت رسمية تماماً. ولم تكن جيمسي في مزاج لتهذب نفسها ولكنها استغربت لماذا كلتاهما اتخذتا موقف كراهية فورياً، نحوها.

أما بقية الوجوه، فكانت عادية بالنسبة إليها ولم تعر اهتماماً كبيراً لاسمائهم، الألم في رأسها يتزايد مع كل صوت. تمايلت قليلاً، التفتت سارة ونظرت إليها بقلق.

«هل من خطب؟ تبدين شاحبة بشكل مخيف.» سألت سارة فيما القلق عقد حاجبيها الناعمين.

«لا شيء!» ردت جيمسي، ولكنها شعرت بالذنب على الفور، عندما رأت نظرات الألم في عيني سارة. إنه ليس مستحسناً إلقاء اللوم عليها لسلوكها الاتهامي. «أنا آسفة،

عندي ألم في الرأس، هذا كل شيء.» أوضحت وهي تبتسم شاحبة.

«تعالي، دعينا ندخل؛ يوجد مقصف للغداء جاهز. وربما كوب من الشاي هو ما تحتاجينه فعلاً.» قالت سارة بإقناع وهي تقود جيمسي نحو غرفة الجلوس. ولو كانت تشعر بأنها أقوى لكانت اعترضت، غير أنها كانت في مزاج لا يسمح لها بالمناقشة. رأتها سارة تجلس في الزاوية وأعطتها كوباً من الشاي الساخن ومجموعة من الكعك اللذيذ. ابتسمت جيمسي لها، عرفاناً منها بالجميل، ولكن سارة انشغلت بالترحيب بالضيوف الآخرين.

دخل روس، وسوزان متأبطة ذراعه ولسبب ما أحست بطعنة في قلبها وهي تلاحظ الطريقة البسيطة التي يتعاملان بها. عندما رأى روس جيمسي، تجمد. قام بانحناءة من رأسه باتجاهها ولكن عينيه كانتا باردتين كما هما دائماً. ولم يمض وقت طويل بعدها حتى استطاع الإفلات من سوزان وأتى نحو جيمسي.

«أليس من الواجب أن تكوني في الفراش؟» انفجر بها. وأسنانه ظاهرة وكأنه يعبر للجميع بأنه يبتسم لها.

«هل هذه دعوة؟» أجابت جيمسي على الفور. ارتفع حاجباه ولكن عينيه بقيتا غامضتين. شعرت جيمسي بالأسف لأنها تلفظت بهذه الكلمات وقبل أن يجيب روس انضمت سوزان إليهما.

استبدل روس تقطيبته بابتسامة دافئة على الفور. جلست جيمسي بصمت، ناسية الألم في رأسها وهي تراقب سوزان

إن لها نظرة تملك جائعة عندما تنظر إلى روس ويدها تنقر معطفه بلطف واهتمام.

«لقد تعرفتما على بعضكما أليس كذلك؟» سأل المرأتين وهو لا يعي كرههما لبعضهما بعضاً.

«نعم، لقد تم ذلك، ولكن لم نعرف إسم عائلتك.» قالت سوزان وهي تنظر إلى جيمسي، غير مدركة نظرة الإنزعاج في وجه روس.

ألقت جيمسي نظرة سريعة عليه قبل أن تقول بصوت أعلى من اللازم: «إنني من آل ماكدونالد؛ عاشت عائلتي في دنكلي إلى أن جاء أحدهم.» قالت وهي تشير بيدها: «وجعلهم ينتقلون إلى أوستراليا.»

خيم الصمت بعد هذا الإفصاح، وسمحت جيمسي لنفسها بابتسامة ارتياح. إنها تكره أن تكون في هذا الموقف الذي ينكرها ثانية بكونها وحيدة ويتيمة، من دون أي من أقاربها، كرهت ذلك بشكل جعلها تتوق إلى إيذائهم كما أوذيت. سوزان كانت الأولى لتكتشف ذلك، لقد بدت مسرورة بهذه الأخبار.

«أنتِ في الواقع سليلة تلك العائلة غير المشهورة؟» سألت والدهشة في صوتها تبدو واضحة. أخذت جيمسي نفساً عميقاً قبل أن تجيبها، هي لا تريد بالتأكيد منح سوزان الفرصة لتشعر بالسعادة لرؤيتها منزعجة.

«ماذا؟ نعم، إني كذلك؛ إني هنا أبحث عن تاريخ عائلتي.» شرحت بلطف: «وروس يساعدني كثيراً.» قالت وهي تبتسم له، ورد عليها بنظرة قاتمة غاضبة. نظرت سوزان نحوه.

«حقاً، يا روس، إني مندهشة كيف تسمح لشخص من آل ماكدونالد في البقاء في بيتك. إن سمعتهم معروفة؛ إني أتساءل! إذا كنت في أمان؟» جهدت كي يأتي صوتها مرحاً وهي تبتسم ولكن النكتة فشلت في إبهاج جيمسي التي قفزت واقفة لتجد نفسها تعود إلى مقعدها بعد أن دفعها روس بقوة. كانت جيمسي على وشك الاحتجاج ولكن ومضات الغضب في عيني روس حذرتها بأن تبقى صامتة.

«إني آمن، يا سوزان، ولكن أشكرك على الاهتمام.» قال روس بلطف.

«بالطبع إنه آمن!» ردت جيمسي بحدة. «وكل ممتلكاته آمنة أيضاً.» تابعت: «ولكن أستغرب كم من كنوز العائلة تخصه حقاً. أعتقد أن نصف ثروته على الأقل أتت من بيت ماكدونالد.»

ازدادت تعابير روس عبوساً وجسده مشحون بالغضب وعيناه باردتان كالفولاذ عندما نظر إليها. ردت جيمسي نظرته بنظرة كراهية مساوية والتقت عيناهما في نزاع غاضب. ارجعت رأسها إلى الوراء دلالة تحدٍ، ولاحظت عروق الغضب في وجنتيه.

«اعتقد أنكِ غير ممتنة.» قالت سوزان ساخرة: «لقد قدم لكِ روس بيتاً. وأنا شخصياً وجدت ذلك شيئاً لا يمكن تصديقه إذ كيف يسمح بدخول شخص من آل ماكدونالد إلى بيته.»

«إن ما تشعرين به سببه التكبر.» ردت جيمسي والتفتت لتواجهها. «على كل حال، إن روس يحب امتلاك كل شيء يعود لآل ماكدونالد.» قالت بتمعن، ثم التفتت إلى روس مع

ابتسامة عريضة. «أليس ذلك صحيحاً؟» أضافت بصوت أجش عندما تركتهما، من غير أن تضيف شيئاً، وكلاهما يحدقان بها وهي تغادر الغرفة. أسرعت إلى الطابق العلوي وألقت بنفسها على السرير وقد بدأت دموع الألم والاحباط الحارة في التساقط. لم تسمع الطرقة الخفيفة على الباب، ولم تسمع أنه قد فتح، ولم تع وجود روس إلا عندما أحست بالسرير يهتز بسبب وزنه. انتبهت جيمسي وجلست فوراً وهي تحملق فيه.

«أخرج!» صرخت به والغضب في كل جزء من جسمها. نظر روس إليها وعيناه غير مقروءتين. ورأت نظرة ألم تبدو على وجهه لكلماتها، ولكنه تجاهل رغبتها.

«لقد جئت لاطمئن عليك.» أخبرها بأسى ووضع يده على يدها، ولكن جيمسي انتزعتها بسرعة. صرخت، غير قادرة على مواجهته لمدة أطول. وقف وهز كتفيه وعيناه إحلولكتا وقد بدت على وجهه نظرة حزن وجدية.

حدقت جيمسي فيه إلى أن سمعت صوت مزلاج غرفة النوم وهو يقفل، عادت ثانية إلى البكاء.

الفصل السادس

استلقت جيمسي على السرير ودموعها تنهمر. لماذا ما عرفته عن تاريخ عائلتها، كان صدمة بالنسبة لها، ونالها الأذى بسبب ذلك. لقد ظنت أنهم أسياد معروفون واتخذ روس من ذلك حجة كي ينكرها بسمعة عائلتها، وبدا عليه السرور في كل مرة يفعل ذلك. على الرغم من أن عائلته ليست فوق الشبهات. تذكرت ما قيل لها عن كيفية تدمير منزل عائلتها وأحست بالقرف.

حملقت في سقف الغرفة. لم تشعر من قبل الآن بالوحدة، والضياع كما تشعر الآن. للمرة الثانية، تشعر وكأنها فقدت عائلتها، مما سبب لها ألماً عميقاً. لم يكن مرحباً بوجودها في ذلك البيت، وعلى الرغم من ذلك تملكها شعور غريب بالانتماء إليه.

قرع الباب، فوقفت على قدميها ومسحت الدموع عن وجهها، آملة أن لا تكون عيناها محمرتين.

«أدخل.» نادت، آملة أن لا يكون روس قد عاد. «مرحباً، كيف حالك؟» سألت سارة وهي تدخل وتضع رزمة بنية كبيرة على السرير.

«أشعر بتحسن قليل الآن، إن كل شيء قد أصبح معقداً، فجأة.» شرحت بصدق، أومأت سارة رأسها موافقة بصمت. إنهما تتشاركان في القاسم النسائي المشترك. ولا داعي لإضافة أية شروحات أخرى.

«ماذا في الرزمة؟» سألت جيمسي بلهفة.

«هدية.»

«لي؟»

«نعم، إنها تعبير عن شكري، لأنك كلمتِ روس بشأني، على كل حال، إنكِ بحاجة لها الليلة.» أضافت وهي تشير بيدها إلى الرزمة.

«أحتاج ماذا؟» سألت جيمسي وهي تمزق الورقة عن الهدية وبعد أن فتحت الهدية نظرت بإعجاب. «تنورة!»

«إنك بحاجة لها، الليلة ستكون رسمية جداً.»

«هل ستكون كذلك؟» سألت جيمسي وشعرت بألم في داخلها. «إذاً، سوف أختفي.»

«لا مفر، يجب أن تستمتعي، إضافة إلى أنك ستكونين صحبة ممتازة لي، وإلا فإن سوزان المرعبة ستكون صحبتي طوال الليلة.»

«هذا القدر أسوأ من الموت!» ضحكت جيمسي، وهي تحظ نظرات الرعب في عيني سارة.

«إنهم جميعاً، مجموعة فاسدة ولكن روس على استعداد أن يفعل أي شيء من أجل مشروعه التراثي. إنه فعلاً متعلق به وبامكانكِ أن تساعديه.»

«أنا؟» سألت جيمسي باشمئزاز. «كيف يمكن ذلك؟»

«إنكِ سائحة، وباستطاعتك أن تتكلمي عن حسنات هذا المشروع؛ معظمهم لا يفكر سوى بجمع المال، إن لدى روس أسباباً أسمى من ذلك، بالطبع.» قالت ساخرة وهي تبتسم باستمتاع.

«هذا ليس عدلاً. أعتقد أنها فكرة رائعة. قد تُوجد فرص

عمل كثيرة في المنطقة، وكذلك فرص تعليمية. إن لدى اسكوتلندا الكثير لتقدمه وأعتقد أنها لا زالت مهملة.» قالت جيمسي وهي تنتقل فوراً للدفاع عنها. رفعت سارة حاجبيها.

«يجب أن تكوني هناك.» قالت بنشوة النصر: «ألم أقل لكِ إنكِ قد تقدمين المساعدة.»

ضحكت جيمسي وهي تهز رأسها: «إنني حقاً لا أملك الرغبة في ذلك؟، فرأسي يؤلمني.» قالت ذلك وهي تفرك صدغيها برفق.

«إنني ممثلة، هل تتذكرين؟» ردت سارة، وابتسمت جيمسي. «لماذا لا تذهبين لركوب الخيل؟ خذي جوادي، أمبر، إنه في الاسطبل، فإن نزهة قصيرة على صهوته سوف تنعش رأسك.»

«هل أستطيع ذلك؟» سألت جيمسي على الفور، وفكرة ركوب الخيل بعثت فيها النشاط.

«بالطبع، طالما أنك تعدينني بالحضور الليلة، مرتدية التنورة.» أجابت سارة.

المساومة بينهما ضارية، لكن جيمسي المتلهفة لركوب الخيل، ذهبت إلى الاسطبل، وكان هناك روس بانتظارها جالساً على حصان رمادي عداء، وقد أثار غطاء رأسه المزين بالريش، اعجابها. بنطال الجينز الذي يرتديه يلائمه تماماً، يبدو أنه يريحه بدرجة كبيرة، وكان باهت اللون لدرجة أوحت لها أنه غالباً ما يرتديه عندما يمتطي الجواد.

رأت إلى جانب جواد روس حصاناً كستنائياً سميناً، من الواضح أنه أمبر. ألقت نظرة سريعة على ثياب الركوب

المستعارة: سترة الركوب القصيرة والسروال، الذي بلون الكريم، الخاص بركوب الخيل، وجدت أنها تلائمها جيداً، حتى حذاء الركوب النحيل الأسود يبدو أنه صنع لها خصيصاً.

«مضى وقت طويل منذ أن ركبت الخيل للمرة الأخيرة.» قالت وهي تمتطي جوادها. «ستكونين بخير. من علمكِ الركوب؟» سأل وهو يراقب الطريقة الممتازة لامتطائها.

«في العطلة، منذ وقت طويل، فكرت جدتي بأن تبقيني منشغلة، لذلك دفعت لدروس التمرين كل يوم بعد الظهر بينما تكون جدتي في غفوتها اليومية.»

«إذاً كان هناك وعي لجنونها.» ضحك روس وكان لا يزال غير مبدٍ أية محاولة للإنطلاق، لاحظت جيمسي وهي مسرورة في داخلها.

«هل كنت بانتظاري؟» سألت جيمسي وتسارعت نبضاتها. «نعم، اعتقدت أنها فكرة جيدة.» توقف قليلاً، ثم أضاف وهو مستغرق في تفكير حالم: «إننا بحاجة لأن نتكلم.»

التقطت الإشارة، مستغربة من الشعور البارد الذي سرى فيها. سار الجوادان، يجرجران قوائمهما في حقل وفير بالعشب. التلال المرتفعة، والأودية العميقة الزاخرة بالغابات الكثيفة والمياه المتوارية. دخلا غابة مظلمة وباردة. رائحة صنوبر العطرة تملأ الهواء ومن أعماق الغابة استطاعت جيمسي سماع نواح الحمام. إنه يشبه دخول الكنيسة، هناك شيء ما، في هذا السكون، الأمان والهدوء، بحيث أن أياً منهما لا يريد أن يقطعه بمحادثة تافهة.

«أشعر أني صغيرة جداً.» همست جيمسي وهي ترفع رأسها نحو السماء من خلف الأشجار الباسقة.

ضحك بصوت رنان وكأنه دعوة. الظلال تغطيهما والغابة تخفت أصوات حوافر الجوادين، في إيقاع خافت مُبهج.

«إذاً.» قالت بهدوء: «كل هذا لك، على ما أعتقد.»

«نعم. وأكثر في الجوار.»

«كم من الأراضي تمتلك حقاً؟» تابعت بفضول، لكنه تجمد على الفور.

جوابه فيه شيء من السخرية: «تعنين، قبل أن تؤخذ أراضي آل ماكدونالد؟»

التوى فم جيمسي وهي تمتص الطعنة: «كلا لم اعن ذلك.» وهي تعرف أن وصول المحادثة إلى هذا المستوى قد يتحول إلى الغضب. ولذلك حولت المحادثة سريعاً.

«قلت إنك تريد التحدث معي، عمّ؟» سألت وهما يتابعان نزهتهما أعمق وأعمق داخل الغابة. بقيت عينا روس مثبتتين على الطريق أمامه متلمّا إبتدأ.

«أفضل، في الحقيقة، أن اقدمك على أنكِ من آل ماكدونالد، بلباقة، إلى أصدقائي.» قال بهدوء واللوم واضح في صَوته.

تتبعت جيمسي طوله المديد، على الرغم من جلوسه على الحصان، فهو لا يزال كبيراً. ولديه سمات قوية، ذقن عنيد تبدو الآن متجهمة. سمح لحصانه بأن يعدو أسرع نحو الأمام، عندما تحرك لم تستطع جيمسي سوى أن تلحظ فخذيه النحيلتين وتموج عضلاته تحت قميصه. وشجعت حصانها في محاولة للحاق به.

«أنا آسفة، لقد كنت على خطأ.» اعترفت بصدق وهي تتذكر كيف تصرفت بفظاظة، حمرة الندم غمرت وجهها. شد روس حصانه للوقوف بقربها والتفت للنظر إليها. شعرت بالغضب والإثارة، إزدادت نبضاتها عندما نظر إليها.

أرسل تنهيدة مسموعة، لقد حيرته، تارة تريد الانتقام، تارة أخرى تصبح هي النادمة. «كنت أنا كذلك أيضاً.» أجاب وهو يحملق فيها وجعلها ترتجف، لادراكها عمق نظراته. «كان يجب أن أحذرك.» قال بشهامة: «من المحتمل أن تكون سوزان أزعجتك بعض الشيء...»

«نعم يمكن أن تكون.» قاطعته وهي لا تريد أن تربكه أكثر. ضحك، إنها المرة الأولى التي تسمعه يضحك فيها، بعمق. وترددت أصداء ضحكته حول الأشجار وكأن الطبيعة نفسها كانت مبتهجة لهذا المرح المشترك.

استرخت، وتنهدت بارتياح. لديه جانبية عندما يضحك، جانب من شخصيته لم تتخيله. إنه رجل ملفت للنظر، صعب حتى الأعماق. مع ذلك فهو حتماً يقضي أوقاته بسعادة، فكرت باستياء، إنه رجل من الصعب أن يُفهم، وردة فعله نحوها تبدو أنها تختلف في كل مرة يتقابلان، من السخرية إلى البرودة، من الصداقة إلى البغض وكل ذلك في لحظات.

تابعا نزهتهما، وخرير المياه المندفعة في الجوار وأصوات تغريد الطيور المتناثرة، كانت موسيقى كافية. بينما يسيران في الغابة كانت التلال المكسوة بأزهار الخلنج ترتفع حولهما، فاتنة في ردائها الأرجواني. الهواء عابق بعطر الزهور، فيه شذى أنثوي يقابل المناظر الذكورية لغابات الصنوبر.

«يبدو أن جدتك كانت سيدة حساسة جداً، فأنت تجيدين الركوب.» أشار بلطف وهما يسيران بانسجام كامل.

«أوه، نعم، لقد كانت مرعبة تماماً، شخصية معروفة في المنطقة الصغيرة التي عشنا فيها.» أقرت جيمسي بنبرة زاخرة بالحب، اوقعت روس في الأسر على الفور. «أخبريني عنها؟» قال لها ملاطفاً، علماً بأن جيمسي ليست بحاجة إلى التشجيع، إنها تحب التحدث عن جدتها.

«أخذتني معها بعد وفاة والدي، حسناً، ليس مباشرة فقد أمضيت بعض الوقت متنقلة إلى أن صرت في عهدتها.» ضحكت جيمسي نوعاً ما، لا يبدو الأمر سيئاً لهذه الدرجة. «لقد كانت من الطراز القديم، المندثر، اعتادت أن تخبرني كل القصص.»

«مثل ماذا؟»

«هل أنت متأكد بأنك تريد أن تعرف؟» فرحت وعيناها ترقصان من البهجة.

«بالطبع.»

«حسناً، معظمها يتعلق بالماضي، إنك تعرف كيف يكون الناس العجزة. كم تغيرت أوستراليا ـ العادية لم تعد كما كانت. في بعض الأحيان تسترجع قصص والديها، والذكريات الغامضة عن اسكتلندا، كما اعتادت أن تتلهف لجبالها التي تعرفها، وكأنها وما زالت تسري بدمائها.» قالت جيمسي بلهفة، ثم سكن صوتها فجأة.

أومأ روس رأسه موافقاً: «أعتقد أن هناك بعض الحقيقة في ذلك.» اعترف بهدوء.

«وأنا أيضاً، على الرغم من أنها تبدو خيالية، وإني

أشعر بأنني في وطني هنا.» اعترفت: «كما أذكرك بأنه من المحتمل أن أعرف عن تاريخ اسكتلندا أكثر من معظم الاسكوتلنديين. وجدتي كانت في الواقع تحدثني في شوق، لدرجة أنني لم اكتف من الحديث عنها. صباح كل سبت كنا نذهب إلى المكتبة ونحصل على كل الكتب التي نستطيع الحصول عليها عن اسكتلندا، تاريخها، جغرافيتها، خرائطها، وكنا نقرأها سوية حتى الأسبوع التالي ثم نستبدلها بأخرى.» استرجعت جيمسي هذه الذكريات وارتسمت على شفتيها ابتسامة لطيفة.

«لم تكن لدي فكرة عن وجود هذه الكتب العديدة عن اسكتلندا هناك.» قال روس بنبرة اندهاش وانفجرت جيمسي بضحكة أجفلت حصانها لحظة. روس يراقبها، مستمتعاً بسرورها.

«لا يوجد، لكننا قدنا أمينة المكتبة إلى الجنون، بحيث أجبرناها على طلب المزيد من المدينة. ثم إن جدتي...» توقفت جيمسي لتضحك ثانية. «ثم إن جدتي كتبت لوكلاء السفريات ومكاتب السياحة الاسكتلندية وإلى أي مكان استطاعت، تطلب منه نشرات وكتيبات. ادعت أننا مصممان على إتمام رحلة إلى اسكوتلندا.»

ضحك روس أيضاً: «لقد كانت جدتك محبوبة تماماً! إذاً هذا هو السبب الذي لأجله أتيت؟» سأل.

«نعم، حسناً، جدتي كانت تطمح دائماً بالعودة إلى اسكتلندا.» قالت جيمسي بسخرية. «ولكن ذلك ليس غير اعتيادي، فالعديد من المهاجرين يتحدثون دائماً عن أنهم حرموا من أراضيهم وكل ذلك تقليدي، لكنني كنت تواقة

لمعرفة دنكلي على حقيقتها.» توقفت متأملة. «حتى ولو كان ذلك، لأجل جدتي.»

«لأجل جدتك؟» ردد بلهجة تساؤل.

«نعم، كان حلمنا، نكتة صغيرة. كانت جدتي من الطراز القديم في طرق مختلفة، لم يكن لدينا تلفزيون، فكانت الكتب والأحلام كل ما لدينا.» قالت جيمسي بهدوء، وقد عادت في ذاكرتها، فجأة إلى البيت، وباستطاعتها أن ترى بوضوح السيدة العجوز النحيلة، الصغيرة الحجم، مع خصلات شعرها الأبيض تسترسل إلى الأمام وإلى الوراء. امتلأت عينا جيمسي بالدموع الحارة وهي تتذكر تلك الصورة المفعمة بالحيوية في مخيلتها. لاحظ روس ذلك، وأحس بالندم لنظرته الفضولية، وتصرف بسرعة لطرد الحزن الذي سيطر عليها.

«هل تسابقين؟» سأل وابتسامة عريضة على وجهه وهو يقرب جواده منها.

«أعتقد أني أفعل ذلك.» ضحكت ولم تكن مهيأة لردة فعله التالية. وخز مؤخرة حصانها بابهام يده القوية. فانطلق الحصان يعدو على الفور. صعقت جيمسي للحظة، ثم ضمت رجليها على الحصان بقوة وأمسكت بالعنان بإحكام. عندما أدركت بأنها لم تكن لتقع، شجعت الحصان للعدو بشكل أسرع. إنها الآن مسرورة، لفح الهواء النقي وجهها وللحظة يخطف أنفاسها. الحصان حيوان جميل قوي ويستجيب. كانت مستمتعة بالركوب على قدر ما كانت سرعة الحصان تزداد.

أرسلت جيمسي نظرة من وراء كتفها، وجدت روس قد

أدركها ولكنها كانت مصممة على أن تريه كم هي فارسة ممتازة. ألحت على الحصان، جعلته يقفز فوق الحجارة الرمادية، ضاحكة وهما يتسلقان التلال. كان أمراً بهيجاً جداً، الرياح الباردة تعصف على وجهها، وتشعرها بالقوة والرابط بين الحصان وراكبه. عندما وصلت إلى قمة التلال نزلت عن الحصان لتجعله يرتاح. كانت تلهث بشدة، وجهها متورد، جسدها يرتعش قليلاً بإثارة. وضعت يديها على ركبتيها وأخذت نفساً عميقاً.

«إنك غبية صغيرة!» صاح روس، عندما وصل إليها وترجل عن حصانه. وقفت جيمسي محتدة، عيناها ترسلان شرراً من الغضب.

«عفواً؟» قالت بحدة، ولكنها أدركت بسرعة ما مغزى كلامه.

«كنتِ على وشك أن تقتلي نفسك، لامتطائك صهوة الجواد على هذا النحو!» صاح بصوت قوي.

«إنني فارسة ممتازة.» استدارت نحوه بنظرة عداء واضحة.

لم يكن مزاجه مزاج مناقشة، توترت أعصابه عندما رآها تعدو بتلك السرعة، تقفز على حصانها، مما أخافه. وضع يديه على كتفيها وأصابعه مغروزة فيهما. هزها بعنف، لدرجة شعرت باصطكاك أسنانها.

«إنه لأمر غبي أن تفعلي ذلك، ليس عندي شك بأنك ماهرة في الركوب. ولكنها المرة الأولى التي تركبين فيها الحصان في هذه المنطقة المجهولة!»

تكلم بصوت عالٍ جداً، بحيث صمّ أذني جيمسي. أحست

وكأن ملايين من رؤوس الدبابيس تنغز في عينيها.

رقت عينيه، فجأة، وأطلق سراحها في الحال، وهو يلعن، أدار لها ظهره. وقفا صامتين، ونبضات جيمسي تضرب بقوة وقلبها يخفق. إنها لم تر أحداً غاضباً على هذا النحو من قبل، وهذا أخافها. وقفت بعيدة عنه. حملقت في ظهره وهي تشعر بالغضب الذي لا يزال في داخله، وتنتظر انفجاره. لقد رأت ذلك في عينيه الداكنتين، شعرت أنه يريد إيلامها بتمهل، ولكن سرعان ما تلاشى هذا الخطر. أخذت نفساً عميقاً وشدت عنان حصانها وعيناها غير غافلتين عنه للحظة. وفجأة رأت كتفيه ترتخيان دليل إحباط، والتفت إليها فجأة، والغضب والتوتر زالا من وجهه الوسيم. وفي لحظة سريعة رأت حناناً في عينيه، لم تكن تتوقعه.

«إني آسف، لقد انفعلت كثيراً.» اعترف بتجهم، وفي صوته قليل من الندم.

«اللعنة، لقد فعلت!» انفجرت جيمسي غضباً وعيناها تشعان حنقاً وهي تنظر إليه.

«قتلت والدتي في حادث ركوب.» قال من خلال أسنانه المصرورة: «لقد كانت هي أيضاً تستمتع بالعدو السريع على صهوة الجواد.»

نظرت جيمسي بتعجب: «أنا لا أصدقك.» قالت وهي تتنهد، الفكرة مرعبة جداً، لتقبلها.

«إنني لا أكذب!» زمجر بمرارة، ووجهه أصبح صلباً وهو يتابع: «كانت شابة جداً، ممتلئة بالحياة؛ لقد كانت خسارة كبيرة.» زم فمه بشدة ونبرته تحمل أسىً عميقاً.

«إذاً أنا من يجب أن يعتذر. لم تكن لدي فكرة...»

«لاداعي لذلك... لقد حدث ذلك منذ وقت طويل بحيث أني أحاول ابقاءه بعيداً عن بالي، لكن رؤيتك...» تجهم وجهه ونظر إلى البعيد كأنه يستعيد ذكرى ذلك اليوم الحزين. «لقد كنت معها في ذلك الوقت؛ وقعت وهي تقفز. أسرعت نحوها للمساعدة. ولكن بعد فوات الأوان. إذ ماتت على الفور.»

هزت جيمسي رأسها، غير مصدقة: «تقصد أنك فعلاً شاهدت الحادثة؟»

أومأ رأسه وقد أثر فيه الألم عميقاً.

«أثر الحادث على والدي بشكل سيء جداً؛ أخذ بالشرب وفي العاشرة من عمري بدأت أتحمل المسؤوليات. ولم يكن لدي خيار آخر.» أضاف بمرارة: «انتهت طفولتي آنذاك.»

أحنت جيمسي رأسها وعقلها يدور في دوامة مما سمعته، كانت تظن أن روس ورث السعادة، مع ما ورثه من أملاك وشرف، ولكن بذلك سُرقت منه طفولته. كان ينبغي لها أن تعرف وأن تدرك أنه يحمل عبئاً ثقيلاً، وتلك القوة والقساوة فرضتا عليه عندما تحمل مسؤوليات والده.

«أنا آسفة، لقد كان شيئاً صعباً.» نظرت إليه بعينين مشرقتين.

«حسناً، لم يكن أمراً سهلاً.» عينا روس تلتهبان وهو ينظر إليها: «ولكني اعتدت على ذلك، ولم يكن لدي الخيار.»

«بحق السماء.» سألت جيمسي وهي تحبس أنفاسها، خوفاً من أن يعتقد بأنها فضولية.

أطلق روس ضحكة هستيرية، جعلت الدم يجري بارداً في عروق جيمسي. «لقد كَبِرتُ بسرعة.» رفع رأسه لينظر

إليها بسرعة، لكنه رأى الاشفاق في عينيها فأخفض عينيه على الفور. وصلت إليه بخجل ولمست ذراعه، من دون أن ينظر إليها سحب يده بعيداً وكأنها لسعت بالنار. تنهدت بصعوبة، قطبت جبينها، وضاق صدرها بشعور غريب، بعد لحظة تفكير أدركت لماذا ابتعد عنها. وكأنه مستاء من نفسه. لقد باح لها بالكثير.

«هل علينا أن نتابع؟» حاولت أن تجعل صوتها هادئاً وعملياً. أحست جيمسي بالاحباط عندما وافق على الفور. امتطيا جواديهما، كان بينهما صمت مطبق، واسترخيا عندما أخذت أشعة الشمس الدافئة تدغدغ جسميهما.

أخذهما الركوب إلى الأعلى، كان الهواء أقل. شهقت جيمسي عميقاً عندما شاهدت المنظر الرائع. التفت روس إليها، كان جواداهما قريبين جداً. أدركت جيمسي ذلك على الفور، إذ كان مستحيلاً عدم إدراك رجل تنبعث منه الرجولة بشكل قوي في الهواء الطلق، حتى يبدو أنه أصبح أكثر وحشية وقد ثمل من الحرية التي كان يبحث عنها بتهور.

«إنه منظر رائع.» قالت جيمسي وهي ترسل عينيها عبر المنظر الجميل المنبسط أمامهما، لوحة من الألوان، ألوان المروج المكسوة بأزهار الخلنج في تناقض مع وجه الجبال الصخرية الصوانية القاتمة المرتفعة حولهما. وابتسامة خفيفة تلاعبت على فم روس.

«هل أغضبتك؟» قال باستهزاء، بينما ابتعدت جيمسي بجوادها عنه بحذر.

«لا، لا، على الاطلاق.» قالت بصوت مرتجف. نظر إليها

بكسل ولاحت ابتسامة على شفتيه الرقيقتين، وراقبها بأعصاب باردة.

«عليك أن تكوني الأفضل سلوكاً هذه الليلة، أليس كذلك؟» قال بلطف، وهو يمرر أصبعه الطويل على رقبتها بحركة رقيقة. ارتجفت عندما وصل أصبعه إلى حنجرتها فابتلعت ريقها على الرغم من كل المحاولات بأن لا تفعل، اتسعت ابتسامته. «سوف أغضب إذا لم تفعلي» قال متوعداً بلطف.

«سوف أفعل.» أجابت وهي تحاول أن تسيطر على نفسها، بعد أن وهنت قواها من جراء لمسة اصبعه على عنقها.

«حسناً، أريدك أن تدركي شيئاً ما.» قال بكسل: «لا أريدك أن تحملي أفكاراً خاطئة.» وضع رأس أصابعه تحت ذقنها، ورفع رأسها إلى أن اصبحت خصلات شعرها مسترسلة وراء ظهرها. «مجرد أنني أخبرتك القليل عن نفسي، لا يعني أن بإمكانك أن تستخفي بي.»

ارتجفت. كانت نبرته تنم عن تهديد شرير قاد جميع حواسها إلى الهلع.

«أنا لا أحلم بالاستخفاف بك، سيد ستيوارت.» أجابت بسرودة، مثبتة عينيها عليه بنظرة جريئة. ابتسم بقساوة وقد بدت أسنانه البيضاء تلمع تحت أشعة الشمس. جرى دم جيمسي بارداً، وتسارعت دقات قلبها عندما أنحنى مقترباً منها.

«أنا مسرور لأن لديك فكرة حسنة عني.» لثمها بلطف وأصابعه تلامس برفق جانب وجهها الذي أصبح يتدفق بالألوان. حبست أنفاسها وهي تحدق إليه بذهول، شعرت

بألم في صدرها من جراء تهديده وتمعنه بها. ثم تغير فجأة. رمقها بابتسامة براقة شعرت بالدفء من اشراقتها. كان روس على درجة كبيرة من التناقض، فعلاقتهما تبدو حميمة جداً في إحدى اللحظات، وفي اللحظة التالية تنقلب باردة وثلجية كالقطب الشمالي.

«هل أنت عطشى؟»

«نعم، وهل لديك شراب؟» سألت جيمسي بسرعة متفحصة خُرج الجواد ولم تر أي شيء.

«كلا.» أعترف بكآبة. «ولكن بوسعي أن أخذك إلى مكان حيث طعم الشراب كالرحيق.» أخبرها وأدار اتجاه حصانه وبدأ يسير في طريق موحل على طول ممر صخري. تبعته جيمسي. الطريق الموحلة جعلتها تمتطي جوادها بحذر. سارا لبعض الوقت، محادثتهما قليلة ولكن يشوبها بعض المزاح، لقد استمتعا بعدم الكلام، وبسرعة بديهتها، لاحظت جيمسي بصمت.

دخلا الغابة ثانية، وبما أن الوقت أصبح متأخراً. فقدت الغابة بعضاً من بريقها الذي لاح عند الظهر وبدت مظلمة وموحشة.

«لنخرج من هنا.» صاحت جيمسي فجأة، من دون أن يجيب، أحنى روس رأسه تحت الأغصان المنخفضة ورفعها، كي تمر من تحتها ثم ظهر أمامها فضاء فسيح ورأت الشمس تشع على المرج الأخضر الجميل. الأعشاب الندية مغطاة بسجادة من الأزهار البيضاء الناصعة والصفراء الظريفة. ترجل روس وابتسامة جذابة تتلاعب على فمه.

«إنه مؤثر، أليس كذلك؟»

«كثيراً.»

«ومع ذلك لم تري، اتبعيني.» ضحك وهو يساعدها على الترجل. أحاط ذراعيه القويتين بوسطها وسحبها نحوه بسهولة وبرشاقة. حررت جيمسي نفسها عندما وطئت قدماها الأرض اليابسة، إن قربها من روس وهو يتلاعب بعواطفها، جعل شعورها يرتقي بداخلها بشكل لم تتخيله. فقد كان شيئاً جديداً، مخيفاً ومثيراً. أخذا طريقهما عبر الخميلة إلى تلة صغيرة وصوت تدفق المياه يملأ المكان من دون أن تستطيع رؤيتها. «من هنا.» همس روس وكأنه لو تكلم بلهجته العادية سوف يحطم سحر المكان. انخفض وهو يدفع ستاراً من النباتات وانكشف أمامهما ينبوع صغير يفور عالياً عن الأرض قبل أن ينساب في الجدول.

جلست جيمسي إلى جانب روس الذي شمر عن ساعديه وكان يغرف الماء بيديه بسعادة ويمسح وجهه. ومدت يدها إلى الماء العذب لتتناول بعضاً منه ولكنه أوقفها.

«هل تسمحين لي؟» عرض عليها أن تشرب من يديه، وضعهما في الينبوع إلى أن امتلأتا بالمياه الباردة المثلجة. رفع يديه إلى شفتي جيمسي، رمقته بابتسامة وهي تحني رأسها وشربت بارتواء. لمسةُ يديه الثابتتين على شفتيها الناعمتين بعثت فيها شعوراً من الحساسية. أغمضت عينيها فيما كانت عيناه تبدوان وكأنهما تخترقان روحها.

«المزيد؟» سأل. أومأت رأسها ولم تجرؤ على رفع صوتها، إنه حتماً سيغدر بها. وللمرة الثانية ملأ يديه بالماء، كانت ندية، باردة كالثلج، وطبيعية كلياً.

«يجب أن تعبأ في زجاجات.» قالت جيمسي وهي تمسح فمها بالمنديل الأبيض الناصع الذي قدمه لها روس على الفور.

«لا مجال لذلك، إنها للقلائل المميزون.» أجابها.

«وهل أنا واحدة منهم؟» تمنت لو عضت لسانها قبل أن تقول ذلك، إنها تعرف كيف ستكون ردة فعله.

«هل تريدين أن تكوني، يا جيمسي؟» سأل برقة، جعلت قلبها يقفز، كانت رنة اسمها فوق شفتيه كأنها موسيقى في أذنيها. توردت على الفور وبدأت بالنهوض، ولكن يده عانقت خصرها وأعادتها ثانية. «إنكِ لم تجيبيني.» قال بسخرية، وهو لا يزال ممسكاً بها بقوة.

«نعم، لا، أوه! لا أعرف...» اضطربت، وحاولت التملص.

«ما رأيك بالدفع قبل أن تسرحي بعيداً؟»

رجعت إلى الوراء بشكل غريزي، إنها تعرف تماماً ما نوع الدفع الذي يريده. راقبته يقترب نحوها ببطء، رقت ملامحه وعانقها أخيراً.

بدأ قلبها ينبض سريعاً وهو يدفعها إلى الأعشاب المطحلبة؛ وقد أحست بالأرض الصلبة الباردة تحت ظهرها بدأ يعانقها بشدة، أغمضت عينيها مستسلمة. تململت بنعومة وقد أمسكت به، تريد أن تقاومه ولكن مقاومتها تلاشت بعد هنيهة. وبينما هما في انسجام تام، مزق صوت سوزان سكون الغابة.

«إنكِ على حق، يا سارة، لا بد أنهما هنا فهذان جواداهما.» تجمدت جيمسي وابتعد روس عنها، أسرعت بالوقوف، فوراً، أخذت تدفع الماء على وجهها بحماس

لتبريد الأنفعال الذي يسري بداخلها. بقي روس جامداً، مغمض العينين وكأنه كان يستريح. لا يوجد أي إشارة إلى أنه قد تأثر. وأحست جيمسي بطعنة. أحست بأنها قد استبيحت وكادت الدموع الحارة تنهمر من عينيها.

«إنكما هنا!» هتفت سوزان، والارتياح في نبرتها واضح. «ذكرت سارة هذا النبع الذي تمتلكونه وقد بحثنا عنكما في كل مكان. لم أتخيل ذهابكما من دوني.» قالت وهي تلوي فمها وتدفع شفتها السفلى في محاولة للظهور بأنها مستاءة.

لم يتحرك روس وبقيت عيناه منفتحتين قليلاً ليلمحها.

«حسناً، هل بإمكاني الحصول على شربة من ينبوعك، إذا سمحت، سيدي؟» قالت بصوت متشنج، غريب، ينم عن قوة بنيتها الشابة.

«إذا كنت ترغبين.» رد روس وهو يقف على قدميه ويبتعد، تاركاً سوزان مذهولة.

استعادت رباطة جأشها، شرحت لجيمسي، متصنعة تفهم الموقف: «إن هذه التصرفات، في بعض الأحيان، متوقعة من رجل في موقعه، هذا شيء لا يمكنكِ ادراكه.»

ردت عليها جيمسي بابتسامة وهي تتبع روس نحو جواديهما، وفجأة أحست بأنها متعبة جداً. امتطى الأربعة جيادهم، عائدين معاً، استمرت سوزان في ثرثرة متواصلة. رمقت جيمسي نظرة إلى روس ولكن تعابيره كانت غير مقروءة والصمت بينهما كان كجدار لا يمكن اختراقه.

لاحظت جيمسي وهي تقود حصانها في الممر القرميدي بارد أن الإسطبلات أكبر وأكثر اعتناء من معظم الإسطبلات

التي رأتها من قبل. أمامها، وجه روس حصانه إلى اسطبل فخم وبدأ ينزع السرج عنه.

«لا بد أن السائس في الجوار.» أخبرها برشاقة: «سوف يقوم بما يلزم للجياد.»

«أستطيع أن أفعل ذلك بنفسي.» أجابت وهي تقود جوادها إلى الإسطبل وبدأت تبحث عن مربط الحصان. لا تزال آثار الصدمة عليها، من جراء انضمام سوزان لهما، انتهيا من الإعتناء بالجياد في الوقت نفسه. وتقابل وجهاهما فيما هما يغادران الإسطبل وتبادلا نظرات عميقة.

الحظيرة كانت هادئة باستثناء صهيل الجياد، وكان الهواء مفعماً برائحة الأرض والقش والجلد وعطر الخلنج من الخارج. أخذت نفساً بطيئاً وتسارعت نبضاتها. لقد علمت بأنه سيحاول معانقتها فاقتربت منه. اضطربت عندما اقترب منها ولكنها كانت مصممة على عدم الاستجابة له. مبقية ذراعيها جامدتين على جانبيها. ولكن رائحة عطره النكية جعلتها تمتلىء بالخوف. حاولت البقاء مسيطرة على نفسها ولكنها عرفت أنها لن تستطيع أن تقاوم.

شعر بصراعها الداخلي فزاد من عناقه ولكنها بقيت من دون حراك. تركها وابتعد عنها، صدره يخفق بخشونة وعيناه اغمضتا، حملقت جيمسي فيه بغضب وأسى، وبعد لحظة صممت على الكلام:

«ماذا تريد أن تبرهن؟» همست بصوت ابح.

أحنى رأسه. «إنكِ تستجيبين لي سواء أردت ذلك أم لا. أشعر بكِ تنبضين بالحياة عندما أكون قريباً منك.» نبرته كانت متهوجة وفظة. والغضب يملأ عينيه.

«سوف أنالك، يا جيمسي؛ سوف تأتين إليّ بارادتك، ربما كان ليحصل هذا اليوم، لو لا حضور سوزان.» تمتم وابتسامة مكر على فمه.

شعرت جيمسي بالألوان تتدفق إلى وجهها. إنها تعرف أنها الحقيقة واستغربت بجدية لم لا تملك القوة أو الرغبة في إيقافه. غير قادرة على تحمل هذه الحقيقة أكثر، فرت من أمامه وأسرعت بارتقاء السلم وأوت إلى غرفتها. كانت في حاجة إلى الاستحمام، نزعت ثيابها بسرعة، وتركتها من دون ترتيب وأندفعت نحو الحمام. تساقطت المياه الساخنة على جسدها وكأن آلاف من الأبر توخز جسدها. غسلت شعرها بالشامبو بعناية ورفعته إلى أعلى رأسها ونظفت وجهها جيداً. لقد صممت على أن تبدو في أحسن حالاتها الليلة.

جلست على الكرسي الخشبي الصغير ووضعت خطاً ناعماً من الكحل الأخضر حول عينيها وحول جفنيها، وضعت من أحمر الشفاه الخفيف حول فمها، بدت مستعدة لهجوم روس. ارتدت بعناية، وضعت التنورة حول خصرها برشاقة وثبتت فوقها الحزام الجلدي. كان جلداً غير عادي، مزيجاً من الأخضر الفاتح والرمادي الباهت وفوقهما أحمر بري دافىء. ارتدت فوقهما بلوزة بيضاء عليها ياقة جلدية مزركشة، ولكنها كانت مناسبة تماماً للتنورة. أعادت جيمسي تصفيف شعرها ورفعته ثم تركته ينسدل على كتفيها.

كانت تبدو مذهلة. انتعلت حذاء بسيطاً أسود، ونزلت إلى الطابق السفلي، استطاعت أن تسمع موسيقى لحن مرح،

توقفت لحظة عند وصولها الباب، ثم أخذت نفساً عميقاً وفتحت الباب. التفت الجميع ليروا من هذا الذي يدخل بشكل دراماتيكي وتوقفت الموسيقى فجأة، الراقصون توقفوا فجأة عن الحركة. الكل كان ساكناً، ينظرون نحوها بنظرات جامدة. الشخص الوحيد الذي كان يتحرك هو روس، رأته يتجه نحوها بخطوات واثقة، ووجهه مكفهر بالغضب. استدارت جيمسي على عقبيها وفرت، حذرتها غريزتها بأن تجري، على الرغم من أنه لم يكن لديها أي فكرة عن الجريمة التي ارتكبتها.

الفصل السابع

أخذت جيمسي تصعد السلم بسرعة، تقفز درجتين، درجتين وتحاول أن تبعد نفسها عن روس قدر المستطاع، ولكن صوته القاسي فرقع مثل السوط ولسع اثنيها لرقيقتين.

«توقفي حيث أنت!» أمرها ونبرة صوته تدل على أنه لا مجال للمناقشة. تجمدت جيمسي وهي تقفل عينيها بانهزام. ماذا فعلت بحق السماء؟ فكرت بسرعة. ينبض قلبها بعنف وتسارع تنفسها. وقفت هادئة وخائفة، فيما روس يصعد السلم بتروٍ بارد. غيظه يبدو في كل حركة منه. قوته التي تشبه قوة فهد وهو يصطاد فريسته، بدت أكثر هالة في بدلة العشاء السوداء.

وقفت ثابتة، غير قادرة على التحرك، اتسعت عيناها، وحاولت الوصول إلى أمان غرفتها. لكن روس كان أسرع منها فأمسك بيدها قبل أن تبتعد.

«ليس سريعاً!» قال بحدة وهو يشدها نحوه بصورة كادت تقطع تنفسها.

«ما الخطب بحق السماء؟» سألت بخوف، محملقة فيه، وعقلها في اضطراب وصوتها يرتجف، تنظر في عينيه الداكنتين ولا ترى شيئاً سوى الغضب والحنق.

بدت ابتسامة صفراء على فمه.

«هل تعتقدين بصدق أن أحداً لن يلاحظ ذلك؟» رفع أحد

حاجبيه بازدراء. تعابيره قاسية: «إنك يا سيدة... مرة امرأة محبة، عاطفية، راضية في أحضاني، وفي أخرى شرسة، مصممة على الثأر.»

نظرت جيمسي بعيداً وقد طبع وجهها باللون الوردي بسبب كلامه. قبضت يديها، وقالت: «لم كل هذا؟» اتى صوتها غاضباً ومنخفضاً. «إنني لا أعرف بصدق، ماذا فعلت؟»

ابتسم، وجرى الدم في عروقها بارداً. «حقاً ليست لديك فكرة.» قال برقة. والسخرية لا تزال في نبرته. راقبها بعينيه الرماديتين الباردتين.

نظرت إليه، وعيناها تلمعان غضباً. «ألا تصدقني؟»

«بالطبع!» قال بكسل وأصابعه تغرز في بشرتها. «إني متأكد أن لديكِ عذراً منطقياً.»

أحنت رأسها وفمها قاس. «صراحة! انني لا أعرف، عما تتحدث.» غمغمت.

هز رأسه بكسل: «ألا تعرفين؟ افترض انكِ اخترت هذا القماش الصوفي المقلم الخاص لأنكِ تحبين الألوان.» ابتسم محذراً.

شعرت بانهزام فيما بدأت تتوضح أسباب ما حدث.

«دعينا نذهب إلى غرفة المكتب، حيث بإمكاننا أن نبحث الموضوع بمفردنا.» كان صوته فظاً، وأصابعه تأديبية بينما قادها إلى الأسفل. أطاعت جيمسي، وتسارعت أفكارها، كي تؤلف كذبة تمنع روس من معرفة الحقيقة وإلا فإن سارة ستدفع الثمن غالياً. ألم يحذرها من العواقب إذا قامت بأي أعمال طيش؟ راقبته وهو يصب لنفسه كأساً

من الشراب، ويده القوية تشد على الكوب البلوري. جلس في مقعده الجلدي الخاص به وبسط رجليه أمامه. بدا ملفتاً للنظر بشكل لا يصدق.

«حسناً.» تكلم روس ببطء وهو يجرع من كأسه. «وضحي لي.» نظر إليها، ونور المكتب ينعكس على وجهه، والضوء ينير وجنتيه، أرعبها المظهر الذي توحي به هيئته. لم تقل شيئاً، السكون أصبح غير طبيعي. شعرت جيمسي أن أعصابها مشدودة وتصبح أكثر توتراً مع مرور الوقت. كان روس منفعلاً وهذا يكفي كي يعتريها هذا الشعور.

«لم أكن لأعرف أنه ليس لدي الحق بهذا القماش المقلم...» ابتدأت فجأة، غير قادرة على البقاء في صمت مدة أطول وهي بحاجة إلى الكلام لتوضح الموقف.

زم روس فمه. «إنكِ تملكين كل الحق وهنا تكمن المشكلة.»

عضت جيمسي شفتيها وهي تفكر بصعوبة. «لم افهم.» قالت بقلق. هل أبعدت سارة عن الموضوع؟ فكرت عابسة.

«كلا.» تكلم ببطء وضيق.

نظرت إليه وهو يضع كوبه على الطاولة بصوت مسموع. «أنا آسفة، لم تكن لدي فكرة...» بدأت الكلام.

«لقد كنت حليماً جداً معكِ؛ حافظت على هدوئي على الرغم من تحريضك المتواصل.» شد فكيه بأحكام وهز رأسه. «حسناً، لن أكون الرجل المهذب معك، بعد اليوم.»

لم تستطع جيمسي تصديق أذنيها، تحول خوفها إلى غضب ونقمة، توهجت عيناها، نظرت إليه وهي تكرهه بحرارة.

«رجل لطيف، رجل لطيف، إنك لا تعرف حقاً، معنى الكلمة!» قالت بسخرية وقد لاحظت نظرة الغضب الشديد التي كانت تتكون في عينيه. وقفا في مواجهة بعضهما بعضاً، عالقين في معركة صامتة من الغضب المكتوم، عندما فتح الباب فجأة ووقفت سارة حائرة بينهما وعيناها تتنقلان من الواحد إلى الآخر.

«توقف! توقف!» صرخت بقلق بعد أن لاحظت الوضوح المتوتر بينهما.

«سارة!» قال روس بنبرة سريعة، ولكنها بقيت واقفة في مكانها ونظرت إلى جيمسي بحزن.

«أنا آسفة، لم اتوقع أن يسبب ذلك أي مشكلة. لقد قصدت أن يكون ذلك مزاحاً، كل فتاة، ترتدي تنورة، ومن العدل أن ترتدي جيمسي قماش آل ماكدونالد المقلم.»

أطلقت جيمسي صرخة اندهاش ووجهت نظرة إلى روس الذي بدأ دخان غضبه يتبخر. نظر من فوق رأس سارة مباشرة إلى عيني جيمسي.

«أدين لك باعتذار: اعتقدت أنه عمل مقصود...»

«إن رأيك بي سيء للغاية.» قاطعته خائبة، وكل الغضب قد تبخر الآن ليستبدل بالخيبة لأنها اعتبرت تصرفه متعمداً.

«سارة، اذهبي الآن: إبقي مع الضيوف. سنكون هناك حالاً.» قال ببرود وهو يقودها بحزم نحو الباب.

استدار روس لينظر إلى جيمسي.

«أنا حقاً آسف: أخشى أن غضبي، غالباً ما ينال مني.» قال بهدوء وأظلمت عيناه.

«لاحظت ذلك.» ابتسمت له، غير راغبة في أن تراه ذليلاً

«إذاً، هل عفوت عني؟» سأل، آخذاً يديها بيديه يتلاعب بعواطفها. كرهت نفسها لأنها أصبحت غير قادرة على السيطرة عليها. «لماذا لم تخبريني أن السبب سارة؟» سأل وهو يقربها منه.

«هل كنت ستصدقني، وهل أنت...» توقفت لحظة. «مسكينة سارة.» أضافت بعد تفكير.

قطب روس جبينه. «هل أنا بهذا السوء؟» سأل وصوته زاخر بالألم والاهتمام. لقد كان أسهل على جيمسي لو أنها لم تعرف شيئاً عن طفولته، ولكن الآن وقد عرفت فقد أصبح بإمكانها أن تفهمه وتغفر له بعض تصرفاته.

«سارة تحبك، وهذا دليل كاف على أنك رجل جيد.» أجابت فيما أخذ صوت رقيق بالصراخ في داخلها، أنا أحبك أيضاً، وعرفت في تلك اللحظة، بصورة أكيدة أنها قد اهتزت داخلياً. لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً، لا يمكن أن تكون تحب روس ستيوارت.

«لا أستطيع العودة إلى هناك، يا روس.» عرفت أن عليها البقاء بعيداً عنه، خائفة من أن يصبح شعورها نحوه واضحاً. قطب حاجبيه، بسرعة وهز رأسه.

«بل يجب، وإلا فإنهم سوف يعتقدون بأنك جبانة، من آل ماكدونالد... وجبانة.» قال بسخرية وهو يحثها على القبول.

ضحكت جيمسي. «لن استسلم لذلك، يا روس: بصراحة، أنا لا أستطيع مواجهتهم. فكر في الأمر، كيف يمكن لنا أن نبرر هذا الغياب الطويل؟ لا بد انهم ادركوا عدم استحسانك لملابسي.»

ابتسم وخطرت بباله فكرة. متجاهلاً حيرة جيمسي، ذهب إلى صورة معلقة على الحائط، تخفي وراءها خزنة. راقبته جيمسي بأفتنان وهو يفتحها بعناية ويتناول صندوقاً مخملياً أسود صغيراً.

«اجلسي.» أمر جيمسي وقد خطا نحوها، فتح الصندوق ليريها محتوياته. بداخله مشبك من الفضة على شكل سيف، رأسه مصنوع من ورقتين شوكيتين ومزين بحجر كريم. شهقت جيمسي بصوت مسموع.

«إنها جميلة.» همست، وأومأ رأسه موافقاً بصمت.

رفع بحذر طرف تنورتها وبحركة رشيقة استبدل دبوس تنورتها بالذي كان في الصندوق.

«كلا، يا روس. أنا لا أستطيع...» بدأت، ولكنه قاطعها على الفور، بنبرة حازمة ولطيفة:

«انت تستطيعين، ويجب أن تفعلي؛ إنها على كل حال تخص آل ماكدونالد في الأصل، والحجر الكريم مستخرج من كارينجورمز. خذيه، من فضلك.»

حملقت جيمسي في الدبوس الجميل، لقد كان بالتأكيد قطعة رائعة من المجوهرات. أرجع روس تنورتها بنعومة. «سأستعيره فقط لهذه الليلة.»

«حسناً، إذا كان هذا ما تريدين.» أجاب، إنها الأكثر صعوبة من النساء اللواتي قابلهن، معظمهن يقفزن فرحاً عندما تسنح لهن فرصة امتلاك مجوهرات كهبة أو هدية، ولكنها مختلفة. بدت مصممة على الاستمرار في النزاع حتى عندما حاول التعويض، فكر بتجهم وهو يمسك بها من يدها ويقودها، عائدين نحو القاعة.

عندما دخلا الغرفة، علت الهمسات وتبادل معظم الموجودين نظرات ذات مغزى. لم تأبه جيمسي لذلك، شمخت برأسها وسارت بفخر واعتزاز.

همس روس في أذنها: «ما فعلته، كان حسناً.» اضطرب قلب جيمسي لهذا الاطراء الرقيق. «أنت على معرفة تامة بتاريخ اسكتلندا، وبإمكانك، حقاً، أن تروجي لفكرتي في انشاء مركز للتراث الاسكتلندي.» ردت عليه بابتسامة، يملأها السرور والدفء لأنه طلب منها المساعدة. اقتربت سوزان منهما، على الفور، فيما كانت تحدق إلى الدبوس المتلألىء بالأحجار الكريمة.

«أرى أن روس قد اعارك قطعة من ميراث العائلة.» علقت وهي تتصنع الابتسام. شعرت جيمسي بالغضب، ولكن روس تدخل قبل أن تنفجر.

«لقد أخبرت جيمسي من لحظات، أن هذه القطعة، كان يملكها، في الأصل آل ماكدونالد، ولذا فهي أحق مني بها.» أجاب سوزان بفظاظة:

«كم أنت شاب أنيق، يا روس.» ابتسمت بتكلف ونظرت إليه بإعجاب. «تعالوا، دعونا ننضم للآخرين.» أضافت وأمسكت بيد روس وكأنها تملكه، ثم قادته بعيداً عن جيمسي.

«هل ترقصين؟» استدارت جيمسي نحو مصدر الصوت ورأت رجلاً يمعن النظر فيها من خلف نظاراته السميكة، فيما تدلت خصلة من شعره على جبهته. «أنا سام ألدريج، مؤرخ محلي.» قال وصافح جيمسي بحرارة، التي ابتسمت لأسلوبه الوردي.

«أنا جيمسي ماكدونالد.»

«أعرف، وكنت اتساءل في امكانية العمل معاً على اكتشاف بعض الحقائق. نادراً ما اقابل أحداً يهتم بتاريخ هذه المنطقة. وكثير من المستندات يبقى أسيراً في خزائن العائلات.» ضحك وقادها من يدها، على الرغم منها، إلى حلبة الرقص.

«لا استطيع الرقص، هكذا.» صاحت جيمسي وهي تنظر حولها، إلى بقية الراقصين المبتهجين. ولكنها اندمجت، بعد قليل، وتمايلت مع الألحان. خاصة، أنها وجدت سام على الرغم من مظهره الخارجي، راقصاً بارعاً. دمث الأخلاق وحلو المعشر.

تبادل الراقصون شركاءهم، ورقصت جيمسي بحماس، حاولت اتقان الخطوات الاسكتلندية وعندما فشلت، ضحكت من نفسها، مما اكسبها عدداً من الأصدقاء لسلوكها المنفتح.

شعرت جيمسي بالارتياح لأن روس لم يحاول مراقصتها، وفي الوقت نفسه شعرت بالعداء عندما رأته يقف مع سوزان. كان من الصعب تجاهلهما، إنهما يؤلفان ثنائياً رائعاً، وينسجمان مع بعضهما البعض، ولا ينفجر الغضب بينهما كما يحدث عندما تتواجد مع روس.

أخذ الجميع طريقهم إلى موائد الطعام المفروشة بأفخر الماكولات، والمغطاة بشراشف ناصعة البياض ومزينة بالأزهار وباقات الصنوبر المحلي. قدمت أطباق الطعام المختلفة على الطريقة الاسكتلندية التقليدية. لحم البقر المطبوخ قليلاً، لا يقاوم، إلى جانب أطباق السمك المختلفة

والكافيار الفاخر، أنواع السلطة ناسبت جميع الأذواق. فرشت طاولة أخرى بكل أنواع الحلوى والفطائر والشراب.

نظرت جيمسي بدهشة إلى أفخم وليمة حضرتها، في حياتها. من العار على أي كان أن يأكل بدلاً من أن يستمتع بمنظرها. نظرت إلى حيث يقف روس، بوجهه المشرق وأناقته وحضوره المميزين. لا مجال لمقارنته مع أي رجل آخر. ووجدت أنه من الصعب تخيل أنها كانت معه في نزهة على ظهر الخيل أو تصطاد السمك في وسط بحيرة هنا، هو السيد. كل رجل وامرأة، ينشدان صحبته، تقف سوزان إلى جانبه باخلاص المحب ووفاء الشريك. هذا التفكير جعلها تشعر بكراهية عميقة نحوها.

«تعالي يا جيمسي، وانضمي إلي وإلى روس، وإلا سأكون مجبرة على التكلم مع سوزان، التي لا أحبها.» ناشدتها سارة، قاطعة عليها افكارها.

«أنا حقاً لا أريد أن أكون متطفلة.»

«كلام فارغ.» اجابت سارة وجرتها إلى حيث روس وسوزان يقفان. تسارعت دقات قلبها فجأة، وشعرت بالغثيان، عندما اقتربا منهما.

«هل تمتعون انفسكم؟» سأل روس ببرودة، وكأنه يوجه سؤاله إلى شخص معين. ولكنه حملق في جيمسي وتفحصها بعينيه. وانتابها الشعور نفسه عندما تكون بالقرب منه. حاولت اشاحة نظرها عنه، لكن عينيه أسرتا عينيها بقوة.

«لقد لمحت في الحديقة، أطول موقد للمشاوي شاهدته في حياتي.» أقرت جيمسي.

«أنا متأكد من أنها الأطول، ولكن أيها تفضلين؟» أجابها روس وشعت ومضات سرور من عينيه، أدفأت قلبها.

«تبغي الصراحة؟» سألته وعلا صياحها ابتسامة مكر.

«ابغي الصراحة.»

«إني أفضل المشويات في الخارج، تحت أشعة الشمس مع كثير من المشروبات الباردة والكثير من الضحك والمرح.» أجابت وقد أحست فجأة، بالحنين إلى وطنها.

ظهرت الخيبة على وجه روس ثم ابتسم. «كل له رأيه الخاص.» علق وقد بان التجهم على وجهه ثم استدار وانصرف. شعرت جيمسي بهبوط في قلبها.

«لم أذهب إلى اوستراليا قط.» قالت سوزان: «ولكن استطيع أن أرى جيداً انك خارج محيطك، هنا، في استكلندا. يجب أن أساعد روس.» اضافت وهي تبتعد ببطء: «فهو يتوقع ذلك مني، لأني وفي وقت ما سوف أصبح زوجته، وعند ذلك...»

طار صواب جيمسي كأن كلمة «زوجة» اغمدت خنجراً في قلبها. «زوجة... زوجة» لقد لسعتها هذه الكلمة مثل النار. نظرت إلى سوزان، كانت لا تزال تتكلم، ولكنها لم تسمع شيئاً مما تقول. تمالكت نفسها بسرعة، وعادت إليها رباطة جأشها.

«لم تكن عندي فكرة، أنك وروس سوف تتزوجان.» قالت جيمسي وهي تشعر بإعياء وبألم في صدرها أعاق تنفسها.

«حسناً، إنه لا يزال مشروع زواج، واعتقد أنه سيصبح جاهزاً بعد الحصاد وهو يعرف أني سأكون في انتظاره.»

ابتعلت جيمسي الشعور بالمرارة. إنها واحدة من الكثيرات اللواتي يطمحن للزواج منه، ولكنها الأقرب منه. اعترتها رجفة لهذه الفكرة، أما هي جيمسي، فلا تعني له شيئاً. مجرد عابرة سبيل، يلهو معها، قبل أن يستقر في زواج محترم. ولكن كيف تتحمل سوزان هذه التصرفات؟ أحست بالشفقة عليها، على الرغم منها، وفكرت: لو كنت مكانها، لما استطعت مشاركة الرجل الذي أحبه مع امرأة أخرى.

حدقت جيمسي إلى طبقها، لقد فقدت شهيتها للطعام. اعتذرت بأدب لسوزان وانسحبت. فجأة، بدت حياتها خاوية... من دون هدف. إذاً، روس يتزوج، ولكن سوزان ليست الزوجة المناسبة، فكرت جيمسي وابتسمت، هل يمكن لرجل من آل ستيوارت وامرأة من آل ماكدونالد أن يقعا في الحب؟ هذا مستحيل.

«ها أنت!» قطع سام عليها افكارها وسرت من تلك. «ما رأيك في احتمال وقوع شخص من آل ستيوارت وشخص من آل ماكدونالد في الحب؟» سألها فجأة، واعتلى الأحمرار وجنتيها. هل قرأ أفكارها، أو كتبت الكلمات على وجهها؟

«ماذا تعني؟» تمتمت وهي تحملق فيه بشدة.

«أوه! أرى أنني قد لمست وتراً حساساً. كلما طرحت هذه الفكرة اثير ردة فعل مع أنها مجرد نظرية.» رد عليها من دون أن يدرك ما تركته، هذه الكلمات من أثر فيها.

«في الحب؟» سألت جيمسي.

«أجل، تعالي إلى الخارج، لقد أصبح الجو حاراً هنا، وأريد أن أشرح لك نظريتي.» قال بلهفة وبدت على وجهه

الصرامة. أخبرها أن هوايته المفضلة هي ركوب الجياد وكانت جيمسي متشوقة للهروب من المنزل.

«هيا نذهب إلى الحديقة.» وافقت على اقتراحه وخرجت عبر نافذة كانت مفتوحة قليلاً. لفحت نسمات باردة وجهها بقسوة.

«أرجوك أخبرني المزيد؟» رجته وهي تجلس على حائط الحديقة الرطب.

«إنها نظرية، مجرد نظرية، هل تدركين، ولكن يوجد الكثير من الثغرات أمامي. معظم التاريخ له سبب ولكن في حالة آل ماكدونالد يبدو أنه يوجد أصغر...»

«إثبات.» عرضت جيمسي، مسرورة لأنها وجدت أخيراً مخرجاً صغيراً.

«هذا صحيح. وهذا ما أراه، بما أنك تفهمين أنه ليس لدي إثبات، ليس بعد.» أخبرها والحماسة في صوته أدفأت قلب جيمسي وهي ترى حلاً للخزي الذي ألحق بعائلتها. آل ستيوارت يريدون الثأر من آل ماكدونالد.»

«من أجل المجوهرات، تعني؟»

«كلا، فعائلة بهذا الثراء باستطاعتها إحضار مجوهرات أخرى على الفور. إن القصة أبعد من ذلك، غريزتي تقول لي إن هناك شيئاً أبعد من ذلك.» أضاف بشكل غامض. شعرت جيمسي برعشة تسري في عمودها الفقري.

«وهل أستطيع المساعدة؟» سألت وهي تتمنى المشاركة.

«بكل سرور! لقد سمح لي روس باستعمال مكتبته غداً. ربما تحبين الإنضمام إلي بعد الإفطار، حتى يكون بإمكاننا أن نبدأ باكراً؟»

«هل يعرف عما تبحث؟» سألت جيمسي، وهي تعرف أن من الصعب أن يسمح روس بمغامرة كهذه.

«نعم، وما يضحك في الأمر، أنه منذ ستة أشهر لم يكن ليسمح بذلك، وبعناد. ولكنه، اليوم، يبدو كأنه تواق لمعرفة الحقيقة.»

خفضت جيمسي رأسها، استطاعت أن تعي السبب جيداً، كلما أسرع في إثبات انها على خطأ، كلما كان أفضل له. فكرت باستياء: «نعم، سأكون مسرورة لأن الحق بك غداً. قد يكون هذا العمل مثيراً.»

قطع حديثهما صوت روس فجأة!

«سام، أحضر شالاً لجيمسي.» لقد كان أمراً صارماً، جعل التلميذ الشاب يسرع لتنفيذه.

التفتت جيمسي نحوه، كي تقول له إن ليس لديه الحق في أن يأمر أحداً، على الأطلاق، ولكن الكلمات ماتت على شفتيها وهو يضع معطفه على كتفيها. ودفء جسمه قد أدفأ المعطف ورائحة عطره الحادة ملتصقة بالمعطف. لفت المعطف على نفسها بعد أن أحست فجأة، بالبرد.

«لقد أخبرتك، إننا هنا في مكان مرتفع وهواء الليل بارد بشكل مميت، هل أنتِ غبية لتخرجي من دون معطف؟» وقف ينظر إليها مترفعاً، وقميصه الأبيض يلمع في عتمة الليل أحست جيمسي بالضيق عندما تذكرت ما قاله عن الانزعاج من ضيف ثقيل.

«لم أكن لأعرف أن الطقس سيكون بارداً على هذا النحو، دعنا ندخل.»

«تبدين أكثر من راغبة لأن تكوني في الخارج معه، لِمَ

ليس معي؟» سأل وهو يقترب منها بحذر، ورائحة عطره تفوح في الهواء.

أطلقت جيمسي ضحكة قصيرة، وحاولت الأبتعاد عنه، غير راغبة في اجابته. وادركت مدى استيائه من نبرة صوته العميق.

«لقد كنتِ على صواب، اكتشفتِ أن لديك الكثير لمناقشته مع مؤرخنا المحلي.» تحرك بسرعة وسد الطريق عليها. تعابير صارمة ونظرات محارب، أوقعت الروع في قلب جيمسي، فيما كان يميل عليها وكأنه ينقض على فريسة من دون أن ينبس بكلمة لا فائدة من موارية الحقيقة.

«من الطبيعي أن يكون لدينا، أنا وسام، أشياء مشتركة نود أن نبحث فيها.» قالت ببرود وليس في تعابيرها أو نبرة صوتها ما يدل على اضطراب المشاعر الذي تشعره في داخلها. إنها المرة الأولى التي تكون معه بعد أن سمعت أنه سوف يتزوج، وشعور المرارة الذي أحسته كان مؤلماً.

«يبدو أن لديك أكثر، من مجرد التباحث في العمل.» قال بسخرية. انكمشت أكثر في المعطف، ملتصقة به وكأنه ملجأ من الغضب الذي بدأ ينسل في نبرته.

«لقد كان رجلاً لطيفاً ومجاملاً طوال هذه الليلة. إنه صحبة جيدة، أقل فساداً وأكثر أدباً من الكثيرين هنا.» قالت بعذوبة.

«إذاً، فأنتِ تجدين أصدقائي، مملين؟» قال بصوت عال وعيناه يتطاير منهما الغضب وهو يتجه نحوها وكل عضلة في جسده تنبض بالعدوانية، رجعت جيمسي إلى الوراء بشكل لا إرادي.

«إنهم ليسوا من نمطي، أنهم من نمطك أنت وسوزان.» تمنت لو أن لسانها قد قطع قبل أن تتكلم بهذا، وقد جعلت صوتها يبدو وكأنها تغار من سوزان.

«سوزان؟» ردد. «ما علاقة سوزان بـ ...» ولكنه قوطع بعودة سام. وكان في الظاهر غير مبال ويبدو حذراً قليلاً من روس، الذي كان لا يزال ينظر باهتمام.

«هاك الشال.» قال وهو يقدمه لجيمسي التي ابتسمت له بحرارة، أدهشته: «إنه لأمر يدعو للشفقة أن تعيدي المعطف، إنه يناسبك ويجعلك تبدين ناعمة ورقيقة، ألا توافق يا روس؟»

«كلا، لأن أي شيء يجعلها تبدو ناعمة أو رقيقة، سوف تفعل المستحيل لشرائه، متجاهلة الثمن.» قال بصوت عال وهو ينزع معطفه من على كتفيها ويعود أدراجه.

ارتعشت جيمسي من جراء لفحة الهواء البارد، لفت الشال حولها بشدة محاولة أن تستمد بعض الراحة منه. كان سام لا يزال صامتاً، فقد أحس بغضب روس وبقي يحملق بظهره، غير مصدق.

«أنتِ تعلمين، أنه غريب الأطوار بعض الشيء. أعتقد أن الأرستقراطيين مبنيون على الدم الممزوج.» قال بواقعية. لم تتنزعج جيمسي للنقاش، إنها ترحب بأي تفسير لتصرفات روس.

«حسناً، دعينا ندخل. يبدو أن البرد يشتد بشكل مميت.» أحنى رأسه وهو يرافقها للدخول، وما أن دخلا حتى أقبل روس.

«هل ترغبين بالرقص، يا آنسة ماكدونالد؟» قال وهو

يعانق خصرها بقوة وأحكام، بحيث يصبح رفضها عديم الفائدة. رفضت جيمسي إعطاءه الإحساس بأنه يؤذيها، لذا ابتسمت بعذوبة وتبعته. رشاقتها وخفتها أدهشتاه ووضع يده حول خصرها وشدها بشكل أقرب نحوه. لقد أدركت أنه يلعب بها، يتلاعب بعواطفها، وكان ذلك شيئاً تافهاً.

«هل تصرفت كشريك جيد؟» سأل فجأة دغدغت النبرة اللطيفة أذنيها، وايقظت احاسيسها الداخلية. وضاعت منها فرصة تجاهله.

ابتلعت جيمسي ريقها غير قادرة على إجابته. تمنت لو أن الموسيقى تعود إلى عزف الألحان الاسكتلندية المرحة حيث يبقى الشريك بعيداً عن شريكه، مسافة آمنة. ولكن منذ الانتهاء من تناول الطعام لم يعزفوا إلا ألحان رقصة الفالس وأصبح هناك العديد من الراقصين، وقد صمم روس على استغلال هذه الفرصة، وابتسم نحوها بنظرة حزن.

«لم تجيبي.» قال بهدوء، ساخراً وهو يدرك تماماً تأثيره عليها. وأخذت قبضته تشتد أكثر. كانا يتحركان بصعوبة، حاولت جيمسي أن تبتعد، واتسعت ابتسامته لمحاولتها غير المجدية.

«لا أعتقد بأن سوزان تحب هذا...» همست من خلال أسنانها المطبقة.

«حسناً، هذا أفضل، إني أفعل ذلك لأجل سوزان.» وضحك لنظرة جيمسي المتحجرة.

«أنت تعرف جيداً، ما أعنيه.» تراجعت إلى الوراء وهي تشعر أن دفاعها بدأ يضعف وتعرف أنه أدرك ردات فعلها، ويستطيع ان يحس بالاضطراب في عروق جسمها.

كان يلاطفها متعمداً ارباكها. ارتعدت جيمسي من قربها منه. لقد كانت ممتنة لأن القاعة كانت مزدحمة ولكن عينيها حدقتا إلى ما حولها، خوفاً من أن يدرك الآخرون، ما يحدث بينهما.

«ما الخطب؟ لماذا لا تسترخين، دعي الأمور تأخذ مجراها؟» همس فيما كان يطوقها بيده.

تجمدت جيمسي لهذه الكلمات. «دعي الأشياء تحدث.» لم يكن لديها شك مما يدور في ذهنه. بدا صوته كصوت تود مقنعاً ولطيفاً، ولكن لم يكن سوى مظهر مخادع، في الواقع انها تعرف تماماً ما يريد. تراجعت إلى الوراء بقوة، ودموع الألم والغضب تلوح في عينيها، ومع ذلك كانتا تحترقان من الشوق الواضح.

«شكراً على الرقص.» تمتمت جيمسي وانسلت خارجة. سمعته ينادي باسمها، ولكنها تابعت الفرار، مصممة على أن تترك أبعد مسافة بينها وبين روس ستيوارت.

الفصل الثامن

استقبل جيمسي، حين استيقظت، صباح رمادي اللون، الشيء الذي عكس مزاجها تماماً. السماء كانت مثقلة ومليدة بالغيوم، وتنذر بهطول المطر قررت جيمسي البقاء في السرير، آمنة تحت الأغطية من الطقس الرديء، وآمنة أنها تعرف أنها لن تضطر لرؤية روس. تململت عائدة تحت الغطاء تستمع إلى صوت هطول المطر الذي أخذ في التساقط، نغمات قطرات المطر وهي تسقط على أشجار الصنوبر هدهدتها لتعود إلى نوم عميق. عندما استيقظت ثانية كان الوقت متأخراً.

تذكرت كيف أنها وعدت سام بمساعدته في بحثه، ارتدت ملابسها على عجلة بعد أن استحمت ونزلت إلى الطابق السفلي. انتهى وقت الافطار منذ فترة طويلة، ولكنها تعرف أنها لا تستطيع العمل بجد من دون أن تتناول القهوة. اختلست نظرة إلى غرفة الصباح، لكنها كانت فارغة، في الواقع، كان البيت بأسره يبدو هادئاً بشكل غريب.

بدأت تشعر بالتوتر قليلاً. البيت قاتم بسبب الطقس، والرياح بدأت نواحاً حزيناً وهي تعصف في الخارج وكأنها تبحث عن مدخل خلال النوافذ والجدران المنيعة.

«لقد استيقظت متأخرة.» انبعث صوت روس كسوط مزق السكون وجعل جيمسي تقفز وتطلق صرخة عفوية وهي تلتفت إلى ما حولها وعيناها اتسعتا، خوفاً.

«لقد جعلتني أقفز.» تذمرت وقد تقطع تنفسها، وشعرت بالإرتياح لرؤيتها روس، انه بالفعل، رجل مهيب، لا أحد يجرؤ على انتهاك حصنه، فكرت وهي تبتسم باستياء.

«ادفع قرشاً ثمناً لأفكارك؟» سأل وهو يلاحظ ابتسامتها مستمتعاً ورفع حاجبيه كي يعطي تأثيراً كاملاً لعينيه الرماديتين القاسيتين.»

«أفكاري لا تستحق هذا الثمن.»

«أراهن على أنها كذلك.» أجاب بهدوء وأشرقت جيمسي لتفهمه. «هل تناولت الافطار؟» سأل بشكل غير متوقع. هزت جيمسي رأسها.

«لا، لكنني لا أريد شيئاً غير قهوة.» أجابت.

أخذ روس يدها وواكبها بلطف وبقوة، وكأنه بالغ يُمسك بيد طفل، فكرت بصمت وهو يقودها على الدرجات التي تؤدي إلى المطبخ.

المطبخ مثله مثل بقية البيت، كل شيء يمكن توقعه من منزل بهذه الفخامة. لم يتغير منذ القدم، لا توجد رفوف عالية أو خزانات من الفولاذ الذي لا يصدأ، ولا شيء معلقاً على طول الحائط، لا وجود لأدراج، تنحصر فائدتها بسبب سعتها الصغيرة، بتزيين المكان. إنه مطبخ عائلي حميم، مبني من الآجر الأحمر ومليء بالأدوات المصنوعة من خشب الصنوبر.

سحب روس كرسياً من تحت الطاولة وأمرها بالجلوس. واشتمت رائحة القهوة الجاهزة، التي تملأ المطبخ.

«ما رأيك ببيض سمك السلمون، مخفوقاً. ضعفت وهو يعرف أنها ستفعل. «حسناً، ليس كثيراً جداً.»

«إنك لست بشخص صباحي، هل أنت كذلك؟ لقد استيقظنا

منذ ساعات، هذا ما يجب أن نفعله، كي نعتني بالحيوانات الداجنة.» أخبرها وهو يقلب المقلاة بخبرة. ارتشفت جيمسي قهوتها وهي شاردة الذهن وعلى الرغم منها وافقت وهي تتساءل من يقصد بـ«نحن» وهي تعلم بسرها أنها سوزان. إنها من الطراز، فكرت عابسة، الذي يستيقظ باكراً عند بداية الشروق.

وضع روس طبقاً أمامها. لون البيض الأصفر الكريمي متناسق مع لون السمك المجفف الأصفر والبني وملأ الدخان الجو.

«فطيرة؟» أخبرها روس، واضعاً الفطائر أمامها، على الطاولة. «هيا.» قال روس مشجعاً «إنها لذيذة.»

قضمت جيمسي من إحداها قضمة صغيرة بتردد، ودهشت من مذاقها اللذيذ. أومأت رأسها علامة الإعجاب وأخذت تتناول إفطارها.

«إذا كان باستطاعتك أن تحضر لي مثلها كل يوم، عندها ربما أستيقظ باكراً.»

وجه إليها ابتسامة كسولة ذات معنى، وفمه الحساس يلتوي واشراقة استمتاع في عينيه. «هل تودين أن أطهو لك افطارك كل صباح؟» سأل بهدوء. ونبرة صوته بدت جدية بشكل غريب ونظرات الإستغراب بادية على وجهه. شعرت جيمسي بألوان الخجل الزهرية تلون وجهها وللحظة شعرت بأنها فقدت النطق وبقي عقلها يدور بالنشاط.

«عنيت فقط أنك طاهٍ ماهر.» أجابت خجلة، ونبضاتها تتسارع من التصريح الواضح الذي قالته. رفع حاجبيه باستهزاء وهز كتفيه بلا مبالاة.

«بالطبع هذا ما عنيته. وأي شيء آخر يمكن أن تعني!» أجاب بصوت عال وضحك بصوت مرتفع.

خفضت جيمسي رأسها، مركزة على تناول الافطار، مدركة باحساسها أنه يضحك منها. تابعا الافطار بصمت وعلى الرغم من تحفظها، فقد استمتعت جيمسي بالوجبة الشهية.

«يوجد الكثير من الحسك في هذا السمك، إنها تفسده.» أخبرته جيمسي وهي تدفع طبقها بعيداً. ضحك روس وهو يهز رأسه.

«هذا عرفان منك بالجميل.»

«حسناً، إنك تعرف ما أعنيه ولكنني استمتعت حقاً به. بصدق.» أضافت وهي ترى نظرات الشك التي يرمقها بها. «سوف أغسل الأطباق.» عرضت ذلك وقد بدأت بإزالة بقايا الطعام عن الأطباق.

«سأساعدك، على الأقل أعرف مكان الأشياء، والخدم لديهم ما يكفي للتنظيف بعد ليلة أمس.»

ارتعشت جيمسي لذكر ليلة الأمس وألقت نظرة سريعة إلى روس، ولكنه لم يتابع، لذا فإن إشارته قد تحمل اتهاماً. لاحقاً، امتلأت المغسلة بفقاعات الصابون وتصاعد بخار الماء مما جعل شعر جيمسي يتحول خصلاً متجعدة رطبة.

«هل استمتعت ليلة الأمس؟» سأل روس فجأة، تجمدت جيمسي. أغمضت عينيها بشدة لتفهم مغزى ما قاله، لأن الكثير قد حدث بينهما، ومع ذلك تعرف أنه يخص امرأة أخرى.

«نعم، إنها بالتأكيد كانت ليلة ممتازة.» وافقت مبتسمة.

قطب روس، للحظات، ثم رشها بالماء على مقدمة وجهها. «اعتقد، أنك تعنين تجولك في الخارج.» قال باستهزاء، ضاقت عيناه ولكن نبرته بدت سعيدة. أغمضت جيمسي عينيها وهزت رأسها موافقة، وأخذت تعبث في فقاعات الصابون التي اعتلت صفحة الماء ورمت روس بها.

«يجب على الرجل المهذب أن لا يسأل سيدة أسئلة كهذه!» ضحكت فيما اختفى وجهها خلف كتلة الفقاعات.

«أنا لست رجلاً لطيفاً.» أجاب على الفور وهو ينظر إليها ويمسح وجهه، «وهذا ما أنتِ بصدد اكتشافه.»

أطلقت جيمسي صرخة وهي تركض نحو الطاولة ساحبة كرسياً لتقطع عليه الطريق. ضحك وهو يتبعها. حملق الإثنان ودارا حول الطاولة، ضاحكين كطفلين مبتهجين. أخيراً وبحركة سريعة من روس أمسك يدها. ووقفت جيمسي أمامه غير قادرة على التنفس، تضحك فيما تكافح لاستعادة أنفاسها.

«لقد أمسكتك الآن.» ضحك روس ويداه تحيطان بها، ونظر إليها بابتسامة عريضة وباستمتاع.

«وماذا أنت فاعل بي الآن؟» ابتسمت وهي تعرف أنها قصدت تحريضه. إنها غير قادرة على التخلص منه. هما قريبان من بعضهما بعضاً في الزمان والمكان؛ الحقيقة الوحيدة في هذه اللحظة هي وجود كل منهما. أقفل روس عينيه مستمتعاً بعطرها العذب، وبصمت لعن غدر عائلتها.

«جيمسي.» صاح بصوت أجش وضم رأسها وهو يجري بأصابعه على خصلات شعرها الرطبة منادياً باسمها بلطف.

«جيمسي، ليس من المتوجب علينا أن نتحارب؛ بإمكاننا نسيان كل شيء، أليس بإمكاننا فقط...؟»

«فقط ماذا؟» نطقتها بحدة، منسحبة إلى الوراء، وتحت وقع كلامه تنكرت تحذير سوزان المتجهم. ضاعت اللحظة، وأدرك روس ذلك وأرخى يديه باستسلام. نظر إليها، غير قابل لادراك ردة فعلها.

«ألا تستطيعين أبداً نسيان الماضي؟ لماذا يزعجك بهذا الشكل؟» صاح بقوة وعيناه تلمعان بغضب لا متناه.

«هذا شيء يسهل عليك قوله، أليس كذلك؟ لديك كل شيء، وتريد كل شيء. ليس لدي شيء، لا عائلة ولا وطن ولكن لدي كرامتي. أنتم آل ستيوارت أخذتم مني بما فيه الكفاية، ولكن ساكون ملعونة إذا بعت نفسي.» قالت بشكل عاصف وقلبها تزايدت دقاته من أثر الكلام ووجهها تورد غاضباً. وكان هناك علامات من الألم على وجه روس، لكنها تبدلت لاحقاً إلى نظراته الصلبة العادية، «تبيعين نفسك؟» صاح بغضب. «باستطاعتي ان أنالك في أي وقت أشاء، ستكونين أكثر من شريك راغب.» قال باستهزاء، وهو يمرر إصبعه فوقها بدقة باردة. شعرت جيمسي بأنها تتجمد، إنه لا جدوى من تجاهل الحقيقة في هذا الأمر. إن حضوره يثيرها وهي تعرف ذلك، على الرغم من الفوضى في عواطفها التي كانت تشعر بها. التقت عيناهما ومرة ثانية وعلى الرغم من مواقفها الشجاعة استطاع أن يرى فيها طفلاً مستوحشاً، وأدرك التماسك الهش الذي تحاوله لتشعر بالأمان. لعن نفسه لأنه كان أخرق ولأنه لم يشرح لها.

ولكن عندما نظرت إليه وعيناها تشعان بالرقة والخوف، علم بأنه لا يستطيع.

«لا يهم.» قال بصوت أجش، فيما هو يستدير قبل أن تستطيع أن تقرأ التعبير في نظراته.

ذهبت جيمسي لتلاقي سام بقلب مثقل. كان كل شيء معقداً، لو لم يكن لأجل سوزان، أو لن يكون ذلك لأجل إسمها، لو لم تكن الحقيقة أن الحياة هنا لا تناسبها، اعترفت لنفسها. ربما عندئذ، ربما فقط، تسنح لهما، هي وروس، الفرصة، للبقاء معاً.

تنهدت: هل تريد روس؟ إن الانسجام قد يكون سبباً لمباشرة الحياة سوية، استغرقت في التفكير. هزت رأسها، بدا كل شيء متوقفاً على عامل الوقت وعلى رغبة في أشياء لن تحصل، أبداً.

فتحت باب المكتبة وأطلقت شهقة إعجاب، إنها لم تزر كتباً بهذه الكثرة، خارج المكتبة الحكومية العامة، الكبيرة. الكتب موجودة على طول الجدران من الأرض وإلى السقف رفوف بعضها فوق البعض، بالنسبة لجيمسي إنها الجنة.

نظر سام إليها عندما فتح الباب، وابتسامة بهجة تشع من هيئته الصبيانية.

«مرحباً، أين كنتِ؟» سأل ولكنه تابع، غير منتظر أي جواب: «أعتقد أني وَجدت ما نبحث عنه، إنها يوميات.» قال بحماس، دافعاً إليها كتاباً قديماً مجلداً بجلد أخضر بالهواء مسبباً تطاير الغبار في كل مكان.

«دعنا نرى!» صاحت جيمسي وهي تأخذ الكتاب من يديه بعناية.

«لقد كان مخبأ بإحكام؛ لقد وجدته بالصدفة فقط. هل يمكن أن يكون اللغز كله متوقفاً على هذه اليوميات التي وجدتها بالصدفة.» شرح ذلك.

«كيف بالصدفة؟» سألت جيمسي، مبتهجة فيما فتحت اليوميات بعناية وتصاعدت رائحة الغبار من الورق الذي أصبح لونه بنياً بسبب قدمه.

«أتى روس إليّ بصندوق كبير من الأوراق القديمة، خرائط، مخطوطات، وفي الأسفل وجدت هذه.» مشيراً إلى اليوميات.

«هل يعرف أنها كانت هنا؟» سألت، حائرة من تعاونه المفاجيء. هز سام رأسه.

«من يعرف؟ ولكن أشك في ذلك. إن اليوميات ليست الشيء الذي يود شخص من آل ستيوارت معرفته.» قال بغموض.

«لماذا؟ ماذا تعني؟»

«إن آل ستيوارت وآل ماكدونالد لم يكونوا أبداً متقاربين؛ كان هناك تحدٍ دائم بين العشيرتين، قديم قدم التاريخ نفسه، لكن هنا أمامنا مذكرات الصغيرة هيثر ستيوارت، تكتب قصة حبها مع دنكن ماكدونالد صفحة بعد صفحة.»

تجمدت يدا جيمسي حول الكتاب الأخضر الصغير، وأمسكته باحترام، أعتقدت أنه يستحقه.

«مسكينة هيثر.» تمتمت بهدوء، مفكرة بنفسها. «إن قصتها تشبه قصة روميو وجولييت.»

«ولكن من دون شرفة.» أجاب سام، غير مدرك رومانسية

الموضوع ولكنه مسحور به كمؤرخ. «حسناً، طالعيها بعناية، ادرسيها، لاحظي أي شيء تستطيعين، قد تجدين المفتاح الذي يساعدنا لمعرفة ما حصل لدنكن.»

كانت مهمة بطيئة، لم يتوقع، من كتبها، أن هذه المذكرات قد تقرأ، لذا كانت الكتابة غير واضحة ومختصرة بحيث أن هيثر وحدها تستطيع اعادة قراءتها. ومع مرور الوقت استطاعت جيمسي أن تستدرك ذلك وأخذت تقرأ اليوميات دون صعوبة. تغير لون الأوراق إلى البني على مر السنين والمداد الذي عليها جف أيضاً هو الآخر، وتلاشت بعض أجزائه. كان هناك شيء مؤثر في قصة هيثر المحزنة. لقد كانت مخطوبة لرجل يكبرها بعشرين عاماً ولا يعني لها شيئاً، بينما كانت تحب دنكن ماكدونالد، زواج لا توافق عليه العائلتان. أخذا يلتقيان في السر، غير قادرين على البعد، مشدودين بخيط غير مرئي. فهمت جيمسي كيف شعرت هيثر، وأخذ قلبها ينبض بألم في صدرها وهي تقرأ قصة حبهما اليائس الذي كتب له الويل والألم.

«إستمع إلى هذا!» صاحت جيمسي بألم. قرأت الملاحظات التي أنهت اليوميات بسرعة. الأسى لدى الكاتبة كان واضحاً، فهي لم تكن قادرة على مقابلة دنكن تلك الليلة لأنها سمعت صوت والدها عندما اقتربت من مخبأهما، ففرت، ولم يُرَ دنكن بعد ذلك ثانية. فقدت الجواهر في الليلة نفسها واتهم دنكن بالدليل الذي قدمه فرازر ستيوارت. وجمع جميع أفراد عشيرة ماكدونالد وأجبروا على الانتقال إلى أوستراليا. الوحيدة التي هربت إلى أعالي الجبال كانت بريدي ماكدونالد وكانت حاملاً بولد.

«ما هذه القصة المحزنة، لقد أعادت هيثر بريدي وأعتنت بها.» استنتجت جيمسي. «أعتقد أنها جدة كاميرون.»

«حسناً، أفترض أنه تلك، ولكن لا يوجد ذكر لزوج، إذاً؟» سأل سام، محاولاً جمع شجرة العائلة. هزت جيمسي رأسها نفياً.

«ولكن بالتأكيد علينا العمل لايجاد هذا المكان الخفي، المكان السري، حيث كانا يتقابلان.» هز سام رأسه موافقاً وقد بدأ بحثاً سريعاً في الصندوق ثانية. «يوجد عدد كبير من الخرائط القديمة هنا، إننا قريبون من اكتشاف نوع من العلاقة بين المنزلين. إنه لشيء طبيعي. أن يكون المنزلان متصلان بممرات تحت الأرض.»

بدأ بحثهما بكثير من الأمل والحماس، ولكنه كان عملاً مملاً ومضيعاً للوقت. لم تر جيمسي روس خلال الأيام الثلاثة التالية فيما هي تتفحص بعناية كل ورقة إلى أن وهنت عيناها. حتى أنها عزفت عن تناول الوجبات، مفضلة تناول السندويشات وهي مستغرقة في قراءة الأوراق القديمة.

البيت موجود هنا منذ منتصف القرن الثالث عشر، وكل جيل أضاف شيئاً خاصاً به. لذا كان من الصعب معرفة أين وكيف تكون الممرات. سام كان مصمماً مثلها، وعملا بتواصل من دون راحة.

على حين غرة، أطلق سام صيحة وهو يلوح بورقة في الهواء.

«وجدتها، وجدتها!» صاح والدموع تكاد تسيل من عينيه.

أنزلت جيمسي الأوراق. فقد كانت متلهفة ومستعجلة. وضع سام الخريطة القديمة بعناية محاولاً تفحصها بدقة بإصبعه. «أنظري هناك؛ إنها باهتة، أنا أعرف، ولكن هذه الخطوط تجري تحت البيت. وتمتد نحو بيت ماكدونالد.»

وضعت جيمسي يديها حول رقبته معانقة، لقد نجحت مساعيهما بعد هذا العمل المضني. مد يديه نحوها وعانقها. «لم أكن لأستطيع أن أفعل ذلك من دونك، أنت رائعة.» قال بحنو.

سمعا خطوات توقفت عند مدخل الباب جعلت جيمسي تجمد في مكانها وشعرت أن سام يبتعد عنها، استدار نحو الباب، ليرى من القادم، المتلهف على مشاركتهما الحدث. بقيت جيمسي في مكانها من دون حراك. انها تعرف تماماً من هو القادم، وكيف سيفسر المشهدالذي سيراه أمامه. ثم رفعت رأسها بطيئاً بعد أن أفصح سام عن هوية القادم.

كان روس واقفاً عند المدخل، هيئته متصلبة، عيناه منكمشتان وغاضبتان. «أستغرب إلى ماذا توصلتما أنتما الإثنان.» قال بحدة، وعيناه القاتمتان تنظران إليهما بخيبة، والتفت من دون أن ينتظر أي تفسير، وسار في الممر وهو يخطو بخطوات مليئة بتهديد متقطع.

أقفلت جيمسي عينيها، غير مصدقة. فقد كان غير مألوف منه أن يأتي في هذه اللحظات.

كان سام مصمماً على إعلان الخبر وقت العشاء تلك الليلة. جيمسي لا تريده أن يعلن، لأن الأخبار لن تقابل بالحماسة والترحاب اللذين يتوقعهما. حاولت كثيراً أن

تقنعه بالعدول عن رأيه لدرجة التعب، لكنه رفض أن يستمع لها، ولا شيء اثبط من عزيمته.

نظرت جيمسي في خزانتها واختارت تنورة سوداء بسيطة وبلوزة بيضاء مكورة حول الرقبة. لا تستطيع أن تطرد روس من مخيلتها، لا مجال لذلك مهما حاولت، إنه يغزو أحلامها ويروع نومها. لقد كانت مثارة بما وجدت ولكنها لم تتوقع ردة فعل روس.

انتظرت حتى اللحظة الأخيرة ونزلت بعدها السلم، غير راغبة في أن تكون مع الآخرين لشراب ما قبل العشاء. جلست على كرسيها صامتة ونظرت بكراهية نحو سوزان وروس وهما يجلسان على رأس الطاولة، ورأساهما متلامسان وقد أنحنيا نحو بعضهما البعض يتكلمان بمودة. سام أعلن أخباره الآن، وكان هناك مناقشة مفعمة بالحيوية، ولكن جيمسي قالت القليل. فأفكارها كانت منشغلة جداً.

أدركت الآن أن المناقشة ستنتهي قريباً، الحقيقة كانت تقترب طيلة الوقت، وتعرف أنه قد اقترب وقت المغادرة ولأسباب عدة لا تريد أن تغادر، ولكن البقاء كان مستحيلاً. حدقت إلى روس وتوردت عندما رأت عينيه مثبتتين، تنظران إليها وهما قاتمتان وحنونتان. إنها تعرف أنه مستاء مما عثرا عليه، فلا بد أن علمه أن هناك وجهاً آخر للحقيقة قد زعزع إيمانه بميراثه.

«تبدين هادئة هذا المساء.» سأل ببرود. «ولست متحمسة، كسام بما اكتشفتماه.» قال باستهزاء، مراقباً ردة فعلها باستمتاع.

«نعم، أنا متحمسة، لكن الطريق لا يزال طويلاً لإيجاد

صلة آل ستيوارت باختفاء دنكن والجواهر.» أخبرته بهدوء.

اسودت تعابير روس وحصلت ضجة على الطاولة وهو يقف على قدميه ويرجع كرسيه إلى مكانه.

«هل تقترحين؟» قال بصوت مجلجل، وعدم التصديق ظاهر في نبرته: «أن عائلتي مسؤولة بطريقة ما عن اختفاء دنكن وأننا سرقنا الجواهر؟ انها لسذاجة، أنا أقترح أنه ينبغي لكِ إيجاد دليل فعلي قبل أن تنطقي بهذه النظرية السخيفة ثانية.» عيناه تشعان بالغضب وجيمسي استطاعت الإحساس بحرارتها وهو يحدق بها. دفع شعره من على وجهه بإشارة من الانزعاج وعدل اتجاهه باستياء، أمام ضيوفه. السكون كان صاعقاً، ولكن جيمسي لم تجب، على الرغم من ادراكها بأن الأمور قد تتعقد أكثر مما تتصور.

لاطفته سوزان بحنان ووضعت يدها عليه. «أجلس.» همست بلطف وابتسمت له بعذوبة جعلته يحني رأسه بصمت. حاربت جيمسي شعور الإختناق في حنجرتها لهذه الحركة الحميمة. كل الآمال في علاقة تنمو بينها وبين روس. تبخرت الآن ونبلت. لم يعد باستطاعتها تحمل المزيد، إن الأيام الأخيرة المشحونة بالعمل، والليالي المليئة بالأرق، أضافا شيئاً من الأسى إلى حالتها العاطفية.

نظرت إلى روس ثانية، فكانت عيناه تنظران مباشرة إلى عيني سوزان، فأسرعت جيمسي بمغادرة الغرفة وهي تتمتم باعتذار. وشعرت كأن رؤوس دبابيس صغيرة تخرق عينيها، فيما هي تصعد السلم.

كانت متعبة طوال المساء تذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، تفكر

هل من الأفضل أن تترك، مع أنها تتوق لمعرفة الحقيقة. فاتها العشاء كلياً وبدأت تحس بآلام الجوع تزداد. التهمت أصبع الشوكولا الذي كان في حقيبتها، لكنها لا تزال جائعة. إن الوقت متأخر فقد تجاوز الساعة الحادية عشرة، لا شك أن الجميع قد اخلدوا للنوم، واقتنعت بأن نزولها الآن لن يسبب أي مشكلة. فتحت الباب ونزلت إلى الطابق السفلي، السلالم تطقطق تحت وقع اقدامها بصوت عالٍ. فكرت بمرارة، كل شيء وكل شخص ضد آل ماكدونالد.

أعدت فنجاناً من الحليب الساخن وسندويشاً من لحم البقر البارد، كانت عائدة إلى فوق عندما رأت النور ينبعث من تحت باب غرفة المكتبة. قد يكون سام.

فتحت باب المكتبة الذي أحدث صوتاً وكأنه يعترض على حركتها. أغمضت عينيها من قوة الضوء وأحست بأن فمها سيطلق صرخة عندما رأت الجالس هناك.

رفع روس نظره نحوها ووجهه منهمك ومتغير شكله، «من هناك؟» قال بحدة، ثم تلاقت عيناهما.

«روس!» صرخت جيمسي وهي ترى المنظر. كانت مندهشة. لقد خلع معطفه ووضعه بإهمال على كرسي وقميصه كان مفتوحاً إلى الأعلى وربطة عنقه مرمية فوق المعطف. كان غارقاً في كرسي، ورجلاه ممدودتان أمامه، ويداه معلقتان على جانبي الكنبة. وزجاجة نصف فارغة من الشراب أمام رجليه وكأس ممتلئة بالشراب، احتساها دفعة واحدة، تجهم عندما فعل ذلك؛ متعة الشرب كانت قد فارقته منذ وقت طويل.

«ماذا تريدين بحق الجحيم؟» صاح وهو يمسك بالزجاجة ثانية ليملأ كأسه.

«لم أستطع النوم، كنت جائعة، رأيت النور مضاء، واعتقدت أنه سام.» شرحت له وأحست بالجفاف في حلقها وقد أدركت خطورة الوضع.

«تبحثين عن سام، لا تستطيعين النوم من دونه، إيه؟ إني أستطيع تصور ما أنت جائعة له.» قال بصوت مرتفع.

شعرت جيمسي بدمها يتحول إلى ثلج، ونظرت إليه باحتقار. «ألا تعتقد بأنك حصلت على ما فيه الكفاية؟» سألت ببرود. متجاهلة أحاسيسه كما لو أنها من دون أهمية.

«كلا، لم أحصل.»

هزت جيمسي كتفيها بلا مبالاة، الحديث معه الآن غير مجد. التفتت لتذهب. «أنا عائدة إلى السرير.» قالت وكأنها تحادث نفسها. سمعت تهشيماً فيما هي تستدير لتغادر، والتفتت بسرعة. فرأت أن روس كان قد قفز واقفاً على رجليه يقرع على جانب الطاولة وتحرك بسرعة مدهشة. وبد واضحاً أنه قد شرب كثيراً وهو يتجه نحوها.

هز روس رأسه ببطء. «أنظري الآن ماذا فعلت.» تنمر. «وكل ذلك غلطك.» أضاف، وعيناها تنكمشان وهو يتكلم.

ابتلعت جيمسي الشعور بالاشمئزاز الذي زاد من نبضاتها. نظرت إليه بحذر وانفجرت فجأة: «ربما عليك أن تشكرني. ربما أنقذتك من صراع رهيب كنت ستتعرض له، فيما بعد....»

ابتسم وأحست بدمها يتجمد وتمنت على الفور لو أنها لم تقل أي شيء.

«أي شكر تريدين؟» جر نفسه ببطء وهو يقترب منها بشكل

مهيب. وصلت يده إليها، ولكن جيمسي قفزت إلى الوراء وعيناها تشعان.

«لا تتجرأ على لمسي.» صرخت به وقد أدهشها الغضب الذي يملأ صوتها. رجع إلى الوراء، متذهلاً بعدائها ورفع حاجبه بمتعة معتدلة.

«ما الخطب، ألا يحب ذلك سام؟» صاح.

أطلقت جيمسي تنهيدة مسموعة: «روس، إنك ثمل.»

«إذاً.» قال بغباء: «لماذا لا تأتين معي لقضاء الليلة؟ قد تجعلك جيدة.» عرض عليها، غير راغب في أن يراها تذهب.

«كلا، شكراً.» أجابته باختصار.

«إنه لأمر مثير للشفقة.» ابتسم بجفاف. «قليل من الشراب قد يدفئك ويذيب قلبك البارد.» قال مقترحاً وهو يشد بيده على يدها.

«إذا كان الشراب قد يدفىء القلوب فلن أوقفك عن الشراب. عد إلى الزجاجة يا روس، فقد تجعلك تشعر بالتحسن.» قالت بتجهم.

لم يقل شيئاً، للحظة، أدركت جيمسي أن شيئاً ما يومض في عينيه، الغضب... الألم... الأذى... لم تكن متأكدة. ثم دفعها بعيداً عنه وشق طريقه باتجاه الباب الأمامي. نادته جيمسي وهي تركض باتجاه الباب المفتوح الذي أحدث صوتاً من جراء ارتطامه بالحائط الخشبي.

نظرت في ظلام الليل ولكنها لم تستطع رؤية أي شيء أو سماعه علاوة على صوت الرياح القوية.

وقفت على الباب وتمنت لو أنها تستطيع إعادته، وفجأة تأسفت لأنها لم تقل له ذلك وندمت بمرارة.

الفصل التاسع

تاقت جيمسي لرؤية روس، لتعتذر له وتسترضيه، ولكن بدا أنه كان مصمماً على تجنبها تماماً. بدا أنه يخرج كل يوم من البيت قبل أن يستيقظ أحد ما، وعند العشاء كان الجو مملاً جداً، حتى أن الضيوف بدأوا بالانسحاب بعد العشاء مبكرين، على غير عادتهم. لمحته عدة مرات يجول في البيت، ولكن تعابيره كانت مرعبة بحيث أن ذوي القلوب القوية وحدهم، يستطيعون الاقتراب منه.

أحست جيمسي بالعزلة، وعلى الرغم من ذلك كانت لا تزال تتوق لايجاد ممر سري يربط بين البيتين. كان العمل مضجراً جداً، لدرجة أن كل المتعة قد تبخرت، على الأقل بالنسبة إليها. وكان سام بالتأكيد، سعيداً وهو يدرك بأن البحث قد أوشك على الانتهاء. ومع ذلك فإن كل بحث عن هذا الممر السري كان غير مثمر؛ وإذا كان هناك فعلاً ممر سري فلا بد أنه مخبأ بإحكام في منزل ستيوارت. ثم جاءتها الخاطرة، انهما يبحثان في المكان الخطأ. المكان الأفضل للبحث فيه، قد يكون خراب منزل آل ماكدونالد، منزل لم يتغير منذ مئات السنين، قد يكون الممر مرئياً.

لم تشارك جيمسي أحداً بهذه الفكرة، أرادت التأكد بنفسها أولاً، وهذا يعني مزيداً من البحث في المكتبة المحلية. بالذهاب بعد تناول الافطار، صباح اليوم التالي، وهي مصممة على معرفة المزيد. صدمت عندما دخلت، إذ

رأت روس جالساً إلى الطاولة يقرأ جريدة. حدق إليها من فوق طرف الجريدة بنظرات حادة كنظرات النسر.

«صباح الخير. كيف حالك؟» قال بصوت خال من التعبير.

ألقت جيمسي عليه ابتسامة غير مؤكدة. هل تعتذر الآن؟ فكرت بقلق، لكن الاعتذار مات على شفتيها وهو يتابع حديثه. «أفترض أنك لا تزالين تتابعين هذا البحث الشاذ، مزعجة كل البيت بطرقك المستمر فوق جدران صلبة جداً.» قال بسخرية.

تلون وجه جيمسي قليلاً، لأن هذا ما يحدث فعلاً.

«يوجد ممر، ويجب أن أجده.» ردت وبدا التصميم من نبرة صوتها.

«حسن، أتمنى لكِ التوفيق، لكن ما الذي تريدين اثباته بالتحديد؟ لا شيء! إن هيثر ستيوارت كانت غبية لدرجة، انها تخيلت نفسها تقع في حب شخص من آل ماكدونالد وكانا يتقابلان في السر. من الصعب أن يثبت ذلك براءتك، إنه فقط يدينك أكثر.» انهى كلامه وعاد إلى قراءة الجريدة بطريقة اوحى لها بها أن المحادثة قد انتهت.

ذهبت جيمسي لتناول الافطار، مشدودة الأعصاب ومتوترة. ارتعشت يدها وهي تحاول سكب الفنجان. جلست بعد ذلك إلى المائدة وأحضرت لنفسها قطعة من الخبز المحمص. أبقت رأسها منخفضاً وبقيت صامتة.

«أنا لا أعمل اليوم.» قال روس فجأة، مبعداً الجريدة لينظر إليها. نظرت إليه بدهشة، رافعة حاجبيها.

«هذا حسن.» قالت وهي لا تعرف تماماً ماذا تقول، واستغربت مما يريده منها.

«حسناً؟» قال بحدة، وقد اغاظته بلادتها.

«حسناً ماذا؟»

«هل أنتِ؟» سأل بحدة.

«أنا ماذا؟» أجابت وهي تتساءل، هل بدا صوته مكتوماً، أم هل هو يتعمد المراوغة؟ رفع حاجبيه نحوها في نظرة اندهاش وكأنه يكره التحدث إليها.

«هل لديك عمل اليوم؟» قال ببطء وكأنه يتحدث إلى شخص بليد الذهن.

أومأت رأسها بتردد. «قليلاً، لماذا؟»

«هل تودين الذهاب إلى البحيرة، يمكن مشاهدة النسور الآن.»

أصابت جيمسي الحيرة للحظة؛ إنها تريد الذهاب إلى المكتبة، ولكن رؤية النسور أمر مثير جداً.

«حسناً، نعم أم لا؟» قال بإيجاز، وصبره يكاد ينفد.

«ماذا عن سوزان؟ ألا تريد الذهاب؟» سألت، متمنية أن لا يكون رده إيجاباً.

«لقد غادرت هذا الصباح، وقد قالت اني تجاهلتها كثيراً، اللوم يقع عليك، بالطبع.»

أحست جيمسي بقلبها يخفق عند سماع هذه الكلمات وشعرت بالألوان تتصاعد، فجأة، إلى وجهها. «ماذا تعني؟» سألت وهي تتنفس بصعوبة.

«حسناً، إنك تحطمين كل سكون المنزل بهذا الهراء، أليس كذلك؟» أخبرها ببرودة وأحست جيمسي بقلبها يغرق. وبدا أنه يستمتع برؤيتها على هذه الحال.

«ما المشكلة الآن؟» قال بصوت أجش.

هزت جيمسي رأسها. «لا شيء.»

«حسناً. سأغادر خلال خمس عشرة دقيقة.» قال وهو يقف أستعداداً للإنصراف، بدأ يمشي خارجاً؛ ثم توقف: «أنا لن انتظر.»

انتظرت جيمسي، إلى أن تلاشى صوت أقدامه وهو يبتعد ثم وضعت فنجانها على الطاولة. «اللعنة عليه!» صرخت في سرها من خلال أسنانها المصرورة. لماذا بحق السماء، ان قضاء يوم مع هذا الشخص المتعجرف، كان فوق طاقتها. أخذت نفساً عميقاً وارتشفت ما تبقى في فنجان القهوة وأخذت قطعة من التوست وأسرعت تجري من غرفة الطعام، لم يبق لها من الوقت غير ما يكفي لاحضار الكاميرا بسرعة. إنها تعرف أن روس لا يسوق تهديداً تافهاً وبالتأكيد سيغادر من دونها إذا تأخرت.

أسرعت بصعود السلالم، أحضرت الكاميرا والحقيبة، وأسرعت إلى الفناء الخارجي. كان روس لا يزال منتظراً وينقر بأصابعه على عجلة القيادة نقراً سريعاً.

«في الوقت المناسب.» صاح وهو يدير المحرك.

ابتسمت جيمسي في استمتاع؛ لقد كان الرجل الأشد جنوناً، الذي قابلته في حياتها.

بدأت الشمس في الظهور من بين الغيوم، وأشعتها الندية تخترق السماء الرمادية، على الأقل لا تبدو أنها ستمطر. فكرت وهي تنظر من النافذة، تستمتع بمناظر الريف الطبيعية. التلال ترتفع حولهما وبدت الطريق وكأنها تمتد إلى ما لا نهاية. كان هناك بحيرات متعددة، كل واحدة لها سحرها الخاص.

«عندي مهمة يجب القيام بها؛ تريدني جيني أن آخذ هذه الأزهار إلى الكنيسة.» التفت روس نحو المقعد، مشيراً إلى باقات من الأزهار، بملأ أريجها السيارة. استغربت جيمسي من كون هذه الأزهار تنمو في هذه المنطقة الباردة.

«أرغب في زيارة الكنيسة؛ هل هي قديمة جداً؟» سألت روس الذي بدت عليه الرغبة في، اخبارها.

«إنها بنيت في الأصل بالحجارة عام ٨٤٨ ولكن قبل ذلك في العام ٥٧٠، بنى كلوديس ديراً للرهبان هناك.»

«كلوديس؟» سألت. تبدو لهجته أكثر جدية عندما يتكلم عن أشياء يحبها، وكان من الصعب عليها أن تفهم دمدمته اللطيفة.

«تقول معلومات أرساليات الرهبنة السلتية إن القديسة كولومبا استراحت في هذا المكان لعدة أشهر.» سكت لحظات. «إنها تقع على ضفة نهر التاي، مكان جميل. ربما علينا تناول الغداء هناك.» عرض ذلك. وابتسمت جيمسي.

«إنها فكرة محببة، ولكن ماذا عن النسور؟» سألت.

«المساء هو أفضل وقت لذلك، وبقليل من الحظ يمكننا الاستمتاع بمنظر العقاب.» أخبرها، مستمتعاً بابتسامة السعادة التي ارتسمت على وجهها.

ذهبا إلى الكنيسة بعد قليل. تمشت جيمسي، على مهل، حول المكان فيما ذهب روس ليسلم الأزهار. لقد بنيت على مراحل، في فترة تزيد عن المائتي عام، وكل مبنى له جماله الخاص. دهشت لروعة الزجاج المزخرف والسجاد الأثري، وتاقت للبقاء هنا. ثم نظرت محملقة إلى نحت صخري، لرجل، يقع وراء حاجز، وتساءلت هل هذا روس؟

اقتربت جيمسي مندهشة من التشابه، بغض النظر عن الملابس، من الممكن أن يكون روس بالهيئة الجانبية الحادة نفسها، البرودة، التعابير المتجهمة، وخشونة قاسية في فكيه العنيدين. وارتعشت جيمسي وهي تنظر إلى التمثال.

«نئب باديوش.» انطلق صوت روس الحاد ممزقاً الصمت. جفلت جيمسي وانتزعت يدها عن وجه التمثال.

«من يكون؟» سألت روس بهدوء، هل يستطيع رؤية هذا التشابه الغريب؟

«إنه أحد أجدادي.» قال بتجهم: «السيء السمعة، الكسندر ستيوارت، سيد باديوش وابن الملك روبرت الثاني.»

«سيء السمعة، ذئب؟» رددت جيمسي وهي تشعر بالبرودة تجري في عمودها الفقري.

رمقها روس بابتسامة صغيرة جعلت دمها يتحول إلى جليد. «البعض يقول إنني ورثت عنه أكثر من ملامح التشابه.» قال بشكل تهديد،وقادها خارج الكنيسة إلى الهواء الدافىء.

لم تستطع أشعة الشمس عمل الكثير لإزالة الاكتئاب الذي اعترى جيمسي، إذ تحدق إلى الكاتدرائية، ثم حدقت في روس. كان التشابه واضحاً، ولم تستطع إلا التفكير كيف أن الكسندر ستيوارت حصل على اسم الذئب.

«عندما أكون في البيت وخاصة عندما يكون لدي ضيوف، فمن المتوقع أن أقدم لهم الطعام التقليدي، ولكنني أعترف بأني استمتع بأنواع الطعام الأخرى.» أعترف فجأة

مجبراً جيمسي على العودة إلى الحاضر.

«نعم، أنا أيضاً أحب كل أنواع الطعام.» وافقت بسرعة.

«والطعام الصيني أيضاً؟»

«خاصة الطعام الصيني.» أجابت وهي تدس يدها في يده التي مدها نحوها، تشابكت يداهما ببعضهما وهما يمشيان في الشارع، ولاحظت أن المارين ينظرون وينحنون لروس.

كان ثمة مطعم غير عادي؛ درجاته تنحدر نزولاً إلى مستوى النهر. قادها روس فوق ممر خشبي صغير يوصل غرفة الطعام بالمقصف. جلسا إلى الطاولة الخشبية، مستمتعين بأشعة الشمس الدافئة، والهواء البارد الذي يهب من ناحية النهر.

طلبت جيمسي شراباً أبيض فيما كانت تقرأ لائحة الطعام، التنوع كان كثيراً. كان المطعم متخصصاً بالكانتونيز والأطباق الصينية الجنوبية، كان طعاماً بسيطاً ليس فيه الكثير من البهارات الحارة، معداً من دجاج ممزوج بصلصة بطعم السمك، ولكنه الأفضل، وافق كلاهما على هذا الطبق ثم جاء دور اختيار المقبلات.

«هذا الطعام اللذيذ يصنع من الأحياء البحرية ويمزج بالخضار ثم يقلى بالدهن، كثيراً أو يطبخ على البخار.» قرأ روس اللائحة وهو يتلمظ وقد اتسعت عيناه.

«نعم، بالتأكيد، والآن ماذا أيضاً؟» قالت جيمسي فيما تفحصت اللائحة، الموضوعة أمامهما للبحث عن طبق آخر. وبعد مناقشات مستفيضة، تخللها الضحك والجدل، قررا أخيراً وأخبرا الخادم الذي طال انتظاره.

«المقبلات...» بدأ روس...

«نعم، كثيراً منها!» قاطعت جيمسي ضاحكة.

«الكثيرة.» قال روس، ضاحكاً. «حساء مرق العجل، سبانخ في صلصة القريدس، شرائح من لحم البقر في حبوب سوداء وصلصة حارة وزجاجة من الميورسولت صنع ١٩٧٨.» قال بهدوء وهو يعيد لائحة الطعام إلى النادل.

«أنا أفضل الشاي بالمكسرات، إنه لوقت مبكر جداً لتناول زجاجة من الشراب، أليس كذلك؟» قالت بحذر وهي تراقب ردة فعل روس وابتسمت بارتياح عندما وافق.

«أنا لست من المدمنين لمجرد أنني ثملت تلك الليلة. هل كنت أتصرف بسوء؟ لا أستطيع التذكر.» أعترف بذنبه وهو يداعب كأس الشراب. أبقى عينيه منخفضتين، واندهشت جيمسي من ارتباكه الواضح.

«لا، ليس أسوأ من المعتاد.» ضحكت بينما رفع رأسه وثبت عينيه عليها.

«امرأة مشاكسة!» قال بمزاح.

حضر الطعام بعد قليل، وذهبا إلى المائدة. التصميم كان بديعاً، كل الأواني الصينية حمراء وذهبية فاخرة. كانت الوجبة رائعة، لكل لقمة نكهتها ومتعتها.

«هل أحضرت سوزان إلى هنا؟» سألت جيمسي وهي لا تستطيع ابعاد صوتها عن ذهنها.

نظر روس إليها مستغرباً، للحظة. «كلا.» قال. «أنا لست متأكداً من أنها تحب الطعام الصيني.» أضاف وهو يرتشف الشاي بالمكسرات. «أليست رائحته عذبة؟» سأل جيمسي عندما فنجانه لها. أومأت جيمسي رأسها. من الواضح أنه

مستاء، لذا غير الموضوع، فكرت بمرارة وهي تتنشق العطر.

انتهت الوجبة في وقت قصير، وتركا المطعم ووعدها روس بالعودة إلى المطعم مستقبلاً. الطريق إلى البحيرة انعطفت قريباً من انقاض منزل ماكدونالد ورجته جيمسي للوقوف بحيث تستطيع مشاهدته بوضوح. قطب حاجبيه، لكنها كانت مصممة وناشدته بذلك.

أوقف السيارة بصورة مفاجئة وسمح لجيمسي أن تتفحص بمنظاره المكبر. كان من الصعب الرؤية، لكنها مقتنعة بأنها سترى السلم بوضوح. أطلقت صرخة من البهجة وعلى الرغم منها، أخبرت روس.

«أنظر يا روس هناك.» قالت مشيرة بجنون: «ألا تستطيع رؤيته؟ تبدو هذه الدرجات وكأنها تختفي تحت الأرض.»

انتزع روس المنظار المكبر منها وركز على البقعة التي أشارت إليها. قطب بتجهم وهو يستعرض المكان ولاحظ حماس جيمسي.

«قد تكون سلماً، ولكنها غير واضحة.» قال بتجهم، وهو يناولها المنظار المكبر باستياء

«لكنك بالتأكيد تلاحظ احتمال أن يكون ذلك الممر السري؟ دعنا نذهب هناك ونلقي نظرة.» قالت وبدأت السير فوق الأعشاب الموحلة.

اعترضت جيمسي، عندما وجدت نفسها لا تستطيع الحراك. «دعني!» صاحت بغضب وهي تتلوى كالسمكة في الصنارة.

«بسرور.» قال ودفعها بقوة إلى الأرض فانتصبت جيمسي واقفة وقد اتسخت ثيابها.

«ألا تريد الذهاب للرؤية؟» سألت، متجاهلة الملامح القاسية والصارمة على وجهه.

«كلا، ولن تفعلي أنتِ.» قال وصوته يدل على التأكيد والصرامة.

«يجب ذلك يا روس؛ ألا تدرك ذلك؟» ناشدته وهي تعرف أن هذا، قد يكون الأمل الوحيد لها، الجزء الأخير من اللغز. تجمد جسده بغضب، وباستطاعتها رؤية عضلاته تنبض من تحت قميصه وتعرف أنه يستشيط غضباً، ولكن لا تستطيع أن تستسلم، خاصة الآن.

«قد تكون هذه هي الفرصة الأخيرة لاثبات براءتنا.» تابعت، محاولة اقناعه ولكنه لم يتزحزح.

«قد يكون هذا آخر شيء تفعلينه على الإطلاق، إنه ليس آمناً.» عيناه تشعان بالغضب البارد كالفولاذ. ووجهه المنزعج يبدو أكثر خشونة. عيناه تتطايران شرراً وتحذرانها كي تصمت. «دعينا نعود إلى السيارة.» كان ذلك أمراً وليس طلباً، وتعرف جيمسي أنه من الأفضل أن تطيع.

تسلقت السيارة وهي تحدق للمرة الأخيرة إلى الانقاض. أدرك روس نظرتها وضاقت عيناه بالغضب.

«آمل بأني كنت واضحاً.» قال بنبرة مهددة وكسولة. التفتت جيمسي بسرعة وأخذت تنظر أمامها. «لقد عنيتها، يا جيمسي؛ لا تتجرأي حتى على المحاولة، للذهاب قرب تلك الأنقاض.» بعث صوته رعشة من الخوف في عمودها الفقري ولكنها تمالكت على خوفها.

«هل أنت خائف من أن أكتشف الحقيقة؟» قالت ساخرة

وغاضبة من سلوكه، فيما أدار روس محرك السيارة وانطلق بها، ثم استدار نحوها.

تألق الازدراء في نظرات عينيه الباردتين وأصبحت نظراته أكثر قساوة وجدية. ابتلعت جيمسي ريقها بتوتر وهي ترى العنف واضحاً في العصب النابض في فكيه المطبقين.

«هل هذا ما تعتقدينه؟» تساءل بخشونة. «الحقيقة التي تحاولين الكشف عنها، تزعجني؟» صاح وشرر الغضب يتطاير من عينيه، وأصبحت جيمسي خائفة قليلاً.

«أليس كذلك؟» نطقتها بحدة، وهي ترد عليه بسرعة.

تأوه قبل أن يجيب. «إن الموقع خطر.» قال وهو ينظر إلى فمها المطبق. «خطر جداً، ولهذا لا أريدكِ أن تذهبي إلى هناك.» قال بصوت عال.

تململت جيمسي في مقعدها، ورفعت يديها تلقائياً لتغطي أذنيها.

«عديني، يا جيمسي، عديني بأن لا تذهبي إلى تلك الأنقاض.» أصر وقد دفعها إلى الخلف في مقعدها، مغرزاً أصابعه الطويلة في كتفيها. ابتلعت ريقها وشبكت أصابعها وطاطأت رأسها. «قوليها.» طلب منها ذلك وهو لا يزال ممسكاً بها.

«أنا أعد.» قالت غير صادقة، ورأسها يضع الخطط للعودة إلى الأنقاض بأقرب فرصة ممكنة.

لقد كان من الصعب عليهما كلاهما التمتع بنزهة ذلك اليوم. لقد تكهرب الجو بينهما، وعادا إلى الحذر كل منهما تجاه الآخر.

كما أن الأحوال الجوية لم تساعدهما، فلا النسور ولا العقاب ظهرت. حياة البرية كانت ممتعة بشكل كافٍ، ولكن لا شيء غير عادي. عادا باكراً، ومضى اليوم ساكناً بسبب النزاع الذي حدث بينهما عند الانقاض.

لم تستطع جيمسي الانتظار لرؤية سام؛ فقد كانت مقتنعة بما رأت، سلوك روس وحده عقد أفكارها. استمع سام بعناية وهز رأسه موافقاً: «يجب أن ألقي نظرة بنفسي.» أخبرها. لقد أمضيا بقية المساء يخططان لموعد الذهاب.

«ونحن لا نستطيع الذهاب خلال وقت النهار، فقد يُلاحظ وجودنا.» قالت جيمسي متذكرة تعابير روس المتجهمة.

«في المساء لا نستطيع رؤية شيء حتى مع وجود المصابيح.» قال سام بحساسية، ولكن جيمسي لم تكن صاغية ولقد كانت مصممة على الذهاب إلى هناك في تلك الليلة مع سام أو من دونه.

بدا الليل طويلاً لجيمسي؛ أحضرت مصباحاً قوياً، كما أحضرت حبلاً يمكنها من إيجاد طريق العودة عندما يربط أوله على المدخل. لاحظ روس كم كانت هادئة خلال العشاء وتطلع إليها باهتمام.

«هل من خطب؟» سأل مرات عديدة، وشعرت جيمسي أن الاحمرار اعتلى وجنتيها، هل هو يعرف بخططها؟ فكرت بعصبية، إذا كان عالماً بما تخططه فلا بد أنه سيوقفها.

«تعبة، هذا كل ما في الأمر. أعتقد بأني سأخلد إلى النوم باكراً.» قالت، وتظاهرت بالتثاؤب. ضاقت عينا روس ولكنه طأطأ رأسه موافقاً. عندما تركت جيمسي الغرفة بعد الساعة التاسعة.

ضبطت المنبه على الساعة الحادية عشرة تقريباً، حينها يكون الجميع في فراشهم، وباستطاعتها أن تنطلق في طريقها.

استفاقت من النوم ببطء، ولا يزال رأسها يفكر بمخاطرة الليلة. كانت متعبة، لكن نعومة السرير اللطيفة ساعدتها على الاسترخاء.

استيقظت وهي ترتعش، وأسرعت كي تخمد جرس المنبه خوفاً من أن يسمعه أحد. انسلت من السرير ونظرت من النافذة، كانت ليلة هادئة جافة، والبدر يرسل نوراً أكثر مما كانت تأمل. تمنت أن يأتي سام معها. ولكنه كان احتمالاً بعيداً. «لا روح للمخاطرة.» تمتمت لنفسها وهي تتفحص حقيبتها.

وصلت إلى قميص النوم، ربما محاولة أخيرة مع سام، قد تدفعه إلى المجيء، فكرت وهي تضع روب النوم الرقيق فوق قميص نومها الشفاف وفتحت الباب بهدوء. سارت ببطء في الممر، قلبها ينبض بسرعة. توقفت فجأة؛ كانت متأكدة من أنها سمعت أحداً ما يتحرك. أضيء النور فجأة، كان مستنداً إلى الحائط بكسل. إنه روس.

«أذاهبة إلى مكان ما؟» صاح وهو يتفحص جسدها ومحدقاً في كل مكان من جسدها الذي لا يغطيه سوى قميص النوم الشفاف. شدت جيمسي قميصها نحو جسدها. كأنها تدافع عن نفسها، وفركت عينيها من أثر الضوء القوي.

«حسناً؟» تابع روس بابتسامة كشفت عن أسنانه البيضاء الحادة، إنه يبدو الآن خطيراً بشكل غريب. هذه الابتسامة جعلت دمها يبرد وأحست أنها وقعت في الشرك وغير قادرة

على الحراك فيما هو اتجه نحوها. تجمدت بلا حراك بفعل نظرته الفولانية.

تورد لونها وهو يتفحصها بصمت وعيناه تراقبانها وهي تحاول البقاء هادئة.

«هل يتوقع مجيئك؟» سأل وهو يقترب ويقف أمامها.

ارتفع حاجباها بدهشة. «كلا.» أجابته بصراحة مستغربة هل إنه من الحكمة الادعاء بأنه ينتظرها.

«إذاً ما هذه المفاجأة السارة له؟» قال وصوته القاطع دافئاً. «لماذا لا تزورينني؟» سأل بصوت مزعج، رفع أحد حاجبيه وهو يقترب أكثر منها. شعرت بأن ركبتيها ترتجفان.

«روس...» بدأت الكلام وهي تبتعد ونظرات الخطر في عينيه، أخافتها. تراجعت إلى الوراء حتى التصقت بالحائط، ولكنه وقف قبالها محطماً كل أمل لها بالهرب.

«أتعتقدين بأنني لن أرحب بك؟» اقترب منها أكثر وأخذت يده تداعب شعرها الطويل بقبضة ثابتة. وقفت جيمسي غير قادرة على الحراك. لم تجب جيمسي وعيناه مثبتتان عليها.

«إنكِ جميلة.» همس بهدوء. نظر إليها وكانت هناك لحظة صمت طويلة. «جيمسي.» همس بقوة وعيناه مغمضتان للحظة.

«روس.» نظرت إليه بقلق محاولة أن تدفعه بعيداً عنها وقد بدأ جسدها يضعف.

«ألا تفهمين؟» قال وأسنانه مطبقة وعيناه أصبحتا أشد عمقاً. «جيمسي.» قال بصوت مرتجف وأخذها بيديه بقوة.

لم تستطع المقاومة، عانقته وتحركت بقوة نحوه، وهو يشعر بها قريبة منه.

«هل هذا مشابه لما يجعلكِ سام تشعرين به؟» همس في أذنها. لم تستطع جيمسي إجابته، فجميع أعضاء جسمها ترتجف بالألم الذي سرى فيها.

«أليس كذلك؟» سألها ثانية بصوت مرتجف وهو يلثمها «كلا.» أجابت وجسدها يرتجف. «أبداً.» أقرت بصدق.

«هل تحبينه وتريدين الزواج منه؟» سألها ويداه تحيطان بها بقوة وعيناه في عينيها.

هزت رأسها بارتباك. «لا، لا.» أخبرته وقد تقوس ظهرها.

«إذاً لماذا تذهبين إلى غرفته وليس إلى غرفتي؟» صاح فجأة ودفعها بعيداً عنه والاشمئزاز في عينيه.

«روس.» بدأت جيمسي، ولكن العنف في عينيه أخافها ولكنه ابتعد عنها غاضباً.

راقبته جيمسي باستغراب وصمت وعادت إلى غرفتها. بقيت جالسة على السرير لوقت طويل تحاول السيطرة على عواطفها المضطربة.

جمعت حقيبة ثيابها وارتدت ملابسها وقررت أن تغادر، إنها تريد الذهاب إلى الأنقاض لمعرفة هل يوجد أي شيء مهم، وبعد ذلك ستكون في طريق العودة إلى بلدها.

الفصل العاشر

تركت جيمسي غرفتها بقلب مثقل. توقفت لحظة أمام الباب وحقائبها في يدها وألقت نظرة أخيرة. تنهدت وقد بدأ عليها الأسى والتحسر، الأذى الذي تحسه في الظهور، أصبحت عيناها حارتين من البكاء وتبلل أنفها بالدموع. ابتلعت مشاعرها، وأغلقت الباب بهدوء.

كان البيت ساكناً، فيما عدا غطيط النائمين، الذي تناهى إلى سمعها. تجمدت جيمسي عندما طقطقت السلالم تحت وقع أقدامها، لأنها لا تريد أن يعرف أحد برحيلها. لم تشعر بالأمان إلا عندما أصبحت في الخارج وعبرت المدخل إلى الإسطبل. هناك قررت ترك حقائبها. ستأخذ أمبر إلى الأنقاض وتعود قبل الصباح لأخذ حقائبها ثم تنطلق في رحلة العودة.

لم تكن تعرف تماماً ماذا يشدها نحو الأنقاض، ولماذا تذهب إلى هناك ولكنها شعرت بالرغبة لرؤية أطلال منزل عائلتها حتى ولو لم يثمر بحثها بالعثور على الممر السري.

أسرجت الحصان، لتجري بأقصى سرعة وبأصابع شبه متجمدة من قسوة البرد في هذه الليلة.

بدا الجواد لطيفاً جداً غير منزعج من هذه النزهة المتأخرة. قادته جيمسي إلى خارج الإسطبل وأخذ قلبها ينبض بسرعة عندما قرعت حوافره على الساحة

المرصوفة، مخترقة سكون الليل. ألقت نظرة سريعة نحو البيت لكنه بقي مظلماً، لم يسمعه أحد. امتطت الحصان، بعد أن وضعت الحبل والمصباح على السرج وانطلقت في الظلام. خطف برد الليل أنفاسها، كانت السماء صافية وملايين النجوم تشع والبدر ينير السماء.

إنها تعرف أنه من الأفضل لها البقاء على الطريق، لذا سارت في الطريق نفسه الذي أخذه روس في سيارته. كانت خائفة من السكون حولها والأصوات الوحيدة التي سمعتها كانت أصوات الحيوانات الليلية وهي تطارد فرائسها، وأصواتها تتردد حولها وكأنها شياطين تسخر منها. حثت حصانها على الاسراع وعقلها يتساءل عن الحكمة من هذا العمل.

وأخيراً وصلت إلى المنطقة التي كانت فيها مع روس في النهار، حين اكتشفت السلالم. سلطت جيمسي مصباحها إلى ما حولها ولكنها لم ترَ أي طريق، ولا أي مدخل على الاطلاق. مشت بجوادها ببطء إلى أن وجدت أخيراً مكاناً، حيث الجدار متداع وقفزت من فوقه بحصانها.

إنها لا تستطيع أن ترى إلا بصعوبة، فهي تعتمد الآن كلياً على حاسة حصانها. همست مشجعة في أذن الحصان وهي تنحني عليه وتداعب رقبته. كانت فارسة ماهرة وأمير جواد رائع، وبوقت قصير وصلت إلى الانقاض وترجلت عن جوادها شاكرة له، وربطته إلى شجرة قريبة.

غطت الأنقاض مساحة أكبر مما تراءى لها من قبل، وأحست بالحسرة، لأن منزلاً كبيراً كهذا قد دمر. الأحجار تحت قدميها تتكسر محدثة صوتاً في سكون الليل جعلها

تقفز. أضاءت مصباحها ببطء على الحجارة المتكسرة ورأت المكان مدمراً بشكل مرعب وقد أخفت الأعشاب بعض الحجارة الصغيرة فتعثرت جيمسي أكثر من مرة.

أخيراً وجدت ما تبحث عنه. صفاً صغيراً من السلالم مغطى بالطحلب والأعشاب. سلطت مصباحها إلى الأسفل؛ لم يكن هناك أي شيء يدل على وجود مدخل لكن كان هناك تلال من الصخور والقرميد والفتحة وراءها لا تبدو بالتأكيد واسعة بما فيه الكفاية لتدخل فيها.

أبعدت جيمسي الأعشاب عن جانبي الفتحة، لتفسح لنفسها طريقاً. كانت الدرجات لزجة وكادت في لحظة أن تفقد توازنها. نظرت من خلال الفتحة واشتمت رائحة العفن والرطوبة المتراكمة عبر السنين. تجهمت وسرت فيها رعشة الخوف وترددت، هل هي فعلاً، تريد الدخول إلى هذا المكان؟ كلا، لا تريد أن تتراجع في اللحظة الأخيرة، يجب أن تجد ما يثبت أن أسلافها لم يكونوا لصوصاً. عندما تجد البرهان، سوف تتركه لسام وترحل، وهذا يكفي لتحقير روس ستيوارت. فكرت ثم اندفعت بالعمل على ما جاءت بشأنه بفعل الغضب الذي اعتراها.

أزاحت الصخور التي أمامها إلى أن اتسعت الفتحة بما يكفي للدخول عبرها. يثبت أحد طرفي الحبل على الصخور بعناية، ولفت الطرف الآخر حول وسطها ثم اندفعت، والخوف يملأها، إلى الداخل.

فوجئت، عندما وجدت أن المكان يتسع لها وقوفاً. سلطت المصباح على ما حولها، جدران رطبة يرشح منها الماء، وممر مظلم يمتد أمامها، والمصباح لا ينير إلا مسافة

خطوات قليلة. وجدت صعوبة في تقرير من أين تبدأ، في مكان مليء بالأنقاض والصخور والصلصال. بالإضافة إلى أن التقدم في طريق مظلم ومجهول كان مخيفاً.

ظنت انها سمعت أصواتاً فتوقفت وسلطت مصباحها إلى ما حولها، ولكنها لم تر شيئاً. وعلى الرغم من ذلك، تزايد خوفها وشعرت بتسارع نبضات قلبها.

«من هناك؟» صاحت بصوت مرتعش. ولم تسمع إلا صدى صوتها. انصتت ثانية، ولم تسمع، إلا سقوط بعض قطرات من الماء.

تابعت طريقها، وهي لا تدري عما تبحث أو ماذا تأمل أن تجد. تفحصت الحبل، لم يبق من طوله إلا متران، وأصيبت بالاحباط، لقد سارت كل هذه المسافة من دون أن تعثر على شيء.

انتهى الممر إلى حجرة. وعندما سلطت المصباح على محتوياتها، صرخت ببهجة: «وجدتها!» لقد رأت صندوق مجوهرات ملقى على الأرض. انحنت وتلمست محتوياته بعد ان فتحت الغطاء من دون عناء، وشهقت لروعة المجوهرات التي لم تخف، طبقات القذارة والغبار جمالها. تفحصت جيمسي أحجار الياقوت الحمراء الدافئة، والزمرد الأخضر ثم أعادتها إلى الصندوق وقلبها يخفق من شدة الفرح. أخيراً، وجدت البرهان وبرأت ساحة عائلتها.

وضعت يدها على فمها في محاولة لمنع نفسها من الصراخ، عندما رأت بالقرب من صندوق المجوهرات هيكلاً عظمياً، لرجل، مسنداً إلى الحائط.

تراجعت جيمسي وهي تحمل صندوق المجوهرات إلى

صدرها، ولكنها رأت ان يد الهيكل العظمي كانت ممسكة بكتاب. استجمعت شجاعتها، واقتربت من الهيكل العظمي وانتزعت الكتاب من يده.

سببت حركتها الفجائية انهيار وتهاوي عظام الهيكل العظمي، ارتاعت جيمسي وفرت لا تلوي على شيء. وبسبب خوفها تعثرت، ولم تحمها يداها الممسكتان بالصندوق والكتاب من السقوط. صرخت من الألم وأحست بالدم يتدفق من رأسها.

بقيت في مكانها، تتنفس بصعوبة، لا تجرؤ على الحراك لأن المصباح انكسر ولم يعد بامكانها الرؤية. حاولت الوقوف ولكن كاحلها المصاب لم يساعدها، فسقطت ثانية وصرخت. حاولت أن تجرجر نفسها إلى المدخل الذي أتت منه، ولكن، الألم في رأسها منعها من ذلك وأخذ الدم يتدفق بشكل خطير. سمعت خطوات تقترب منها من دون أن تر أحداً، انكمشت على نفسها وأخفت الصندوق خلف ظهرها، ربما القادم لص، يسعى وراء المجوهرات.

«من هنا؟» صاحت بشجاعة ثم فركت عينيها عندما سلط عليهما نور قوي.

«من تعتقدين أن يكون؟» صاح روس وقد بدا أمامها ووجهه قاتم كالليل نفسه. ارتعشت جيمسي.

«روس.» همست، لا تدري هل هي مسرورة أم لا.

«نعم، روس.» قال، بنبرة حادة. «ألم أحذرك، ايتها الحمقاء الصغيرة؟» قساوة تعابيره كانت على خلاف لطافة يديه وهو يمسح الدم عن وجهها.

«لقد وجدتها يا روس، المجوهرات.» قالت بضعف

والألم يتزايد. «اخرسي.» أمرها ببرود وهو يضغط بصلابة على جرح رأسها ليوقف الدم المتدفق. صمتت جيمسي. هل أصيب بالخيبة لأنها اكتشفت المجوهرات؟ إنه بالتأكيد لا يريد التباحث في الأمر، فكرت جيمسي.

«إن كاحلك متورم جداً، هل لويته؟» سألها وقد انحنى عليها، فيما أصابعه القوية تمسكه بقوة ولكن بلطف.

«نعم.» ابتلعت ريقها وهي تحس بغضبه وتتذكر تحذيره لها. «لا اعتقد أنني أستطيع أن أمشي.» اعترفت بصوت ضعيف، كارهة اعتمادها عليه.

أحاطها بذراعيه ورفعها عن الأرض بسهولة. استطاعت أن تشعر بعضلاته تتقلص تحت معطفه الأملس وهو يضمها نحوه. أحست جيمسي بتورد في وجهها عندما أصبح رأسها على صدره.

«إنك أكثر مشاغبة مما ظننت.» وجه ملاحظته بجفاف وصوته يخبىء دفئاً مفعماً، وأحست جيمسي بأنها تغرق في عمق عينيه. «هنا.» قال ووضعها بقرب الحائط وجلس بقربها.

«ألسنا عائدين؟» سألت وقد شعرت فجأة بالارتباك.

«طبعاً، أنا لا أدعي بأنني سامضي بقية حياتي هنا، ولكن أنا على عكسك، لست مستعداً للمجازفة في حياتي. سوف نبقى هنا حتى الفجر لأني لا أنوي محاولة حملك في الظلام.» أضاف بتجهم وعيناه تحدقان بقدمها. يبدو أن التورم يزداد، شعرت جيمسي بألم عميق وأدركت نظرة الغضب في عينيه فاعتذرت على الفور.

«أنا آسفة؛ كان عليّ أن أجد ذلك.» تجهمت ثانية والألم

يزداد، شدها روس نحوه. ارتمت على صدره الصلب الدافىء. وأحاطها بذراعه.

«أخبريني كل شيء عن ذلك. إنها ستأخذ عقلك.» أمرها وقد جلس وعيناه مغلقتان.

«الدليل الأول كان يوميات هيثر ستيوارت، وكانت واقعة في حب دنكن ماكدونالد. أتصدق ذلك، ستيوارت وماكدونالد يقعان في حب؟» قالت بحزن وهي تغرق أكثر في صدره.

«كلا.» أتى صوته متذمراً بعمق، ومستنكراً. ولكن جيمسي تابعت غير وجلة.

«على كل حال، لقد كانا، ولا حاجة للقول بأن عائلتيهما عارضتا ذلك لذا تقابلا في السر عبر الممرات السرية التي تصل البيتين ببعضهما.» تمتمت مبعدة رأسها عن صدره غير مهتمة بالجرح ثم تاوهت عندما أحست بموجة من الألم تسري في جسدها، عادت وأغرقت رأسها ثانية. تجمد روس على الفور، بفعل صرخة الألم التي أطلقتها.

«ما هذا، يا جيمسي؟ هل تشعرين بأنك أسوأ حالاً؟» سأل؛ وعلى الرغم من غضبه استطاعت أن تشعر باهتمامه. حرك يده نحو وجهها وأبعد برفق الشعر المبلل بالدماء من على جبهتها وتنهد بعمق. «أنا، بخير دعني أخبرك القصة.» رجته وهي ترى نظرات الاستنكار في عينيه. غريب، من المفروض أن يكون غاضباً ولكنه بدا رقيقاً جداً، استغرقت جيمسي في تفكيرها وهي تسترخي بجانبه. بدت وكأنها تستمد الدفء والقوة من رجولته القوية. «في تلك الليلة بالذات، عندما أتت هيثر لتقابل دنكن سمعت صوت والدها

في الممر، لذا ركضت بعيداً ولم يُرَ دنكن ثانية على الإطلاق.» انتهت منتصرة.

«إذاً؟» قال روس وكأنه لم يستوعب القصة، وتساءل عن مدى اصابتها.

«حسناً. يوجد هيكل عظمي هناك، لا بد أنه دنكن، لم يسرق المجوهرات. إنها لا تزال هنا. إنها فقط طريقة آل ستيوارت في الانتقام. ولتغطية جريمة قتل دنكن، وضعت المجوهرات مع جسده الذي لم يعثر عليه، وطردت عائلتي بسبب ذلك.»

«هل تعنين إن آل ماكدونالد أبرياء وأن أفراد عائلتي مجرمون كاذبون.» سأل صائحاً. «ألستِ خائفة من أن يقع لك ما وقع لدنكن؟» قال ممازحاً ولكن جيمسي التصقت به أكثر وهي تحك وجهها بوجهه مثل القطة الصغيرة.

«كلا، أشعر بأمان تام معك.» تمتمت مقتربة منه أكثر. أطلق روس شخيراً خفيفاً وهو يقترب منها ولكن أحكم ذراعه حولها وشدها نحوه.

«هل تشعرين بالبرد؟» سألها روس وهو يشعر بارتجافها، لقد كان هواء الليل بارداً بالتأكيد، والرطوبة تعم المكان.

«قليلاً.» اعترفت وبدأ روس يخلع معطفه، ولكن جيمسي اعترضت. «لا حاجة لأن...» ابتدأت.

«أنا من سيقرر ما يجب فعله من الآن وصاعداً وليس أنتِ.» قال بحزم، خلع معطفه ولفه حول كتفيها. «الآن حاولي أن تستريحي.» أمرها باقتضاب وكأنه يتحدث إلى طفل.

«ولكن يا روس...»

«استريحي.» قال بحدة. اغمضت جيمسي عينيها على الفور، من دون أن ترى ابتسامة الارتياح على وجهه.

استلقيا بعذوبة في تناغم لطيف إلى أن رأيا أول شعاع من الفجر، حاول التمدد، لكن رجليه تجمدتا وأطرافه تؤلمه.

«جيمسي.» همس وهو يراقبها عن كثب، ولكنها بقيت صامتة، وقد أزعجه الأمر. «نعم؟» أجابته وعيناها مثقلتان تحاول فتحهما ولكن جفنيها المثقلين أجبراها على اغماضهما ثانية.

«جيمسي.» صاح وهو يقف، حملها بين ذراعيه إلى الخارج.

«روس، علبة المجوهرات.» قالت بكسل وهو يهم أن يعود بها.

«انسها!» قال بحدة. «لا أستمتع بها.»

كانت جيمسي على وشك الاعتراض، معلنة براءة عائلتها، لكن الكلمات ماتت على شفتيها وهو ينظر إليها. بدت عيناه فجأة تشعان أكثر، النار التي في داخلها لم تلحظها قبل الآن. الجو بينهما كان دائماً منفعلاً، صمت حاد بقوة، لكن هذه المرة شعرت من أعماقها. بعواطفهما المتبادلة. رفعت يديها لتعانق رقبته وأحست به يتجمد من لمستها. أطلقت صرخة ألم عندما بدأ قلبها يخفق بطريقة غير محتملة.

«ما الخطب؟» سأل وصوته ينم عن الاهتمام. تجهمت جيمسي وتأوهت برقة.

«إنه رأسي.» قالت وفقدت وعيها. آخر صورة رأتها كانت

وجه روس وهو ينظر إليها. نظرة القلق في عينيه وابتسمت برقة. اهتمامه في الواقع يبدو صادقاً، وذلك أسعدها.

تحركت جيمسي ورف جفناها واستعادت وعيها. فتحتهما قليلاً، استطاعت رؤية وجه روس الوسيم والقاسي؛ بدت هيئته المتعجرفة قد انتزعت، ولكن قبل أن تنظر حولها ثقلت عيناها وعادت للنوم.

بدا أن النوم يدعوها باستمرار، رأسها بدا مثقلاً، عيناها ترفضان أن تنفتحا، حتى عندما تبدو كأنها تستجمع قوتها لترتشف بعض الشاي الخفيف وكان وجه روس الصارم هو الذي يحييها.

كان وقتاً متأخراً عندما استيقظت جيمسي أخيراً. استيقظت على صوت الستائر تفتح وتدفق النور فجأة، في الغرفة، فتحت عينيها لتستقبل النهار، غير مدركة بأنها نامت لوقت طويل. كان الطبيب قد أكد لروس بأنها واهنة، ليس فقط بسبب الجرح الذي في رأسها.

«مرحبا، يا سارة.» قالت بضعف، تفرك عينيها. استدارت سارة حولها وعيناها تشعان بالاثارة.

«جيمسي!» صاحت وهي تركض نحو الباب ثم صاحت على قدر ما تستطيع: «لقد أفاقت، لقد أفاقت!»

امتلأت الغرفة في لحظات، سام وروس حتى جيني. وقفوا عند أسفل السرير والكل يحملقون فيها. شعرت جيمسي بالارتباك للحظة. وحدقت فيهم مندهشة من تصرفاتهم، وكان روس أول من أدرك على الفور حيرتها.

«ألا تتذكرين؟ أليس كذلك؟» سألها وهو يراقبها بتمعن.

فكرت جيمسي بصعوبة، وزالت الغشاوة عن عقلها وتألقت عيناها وهي تسترجع ما حدث.

«الليلة الماضية، المجوهرات!» صاحت. عبس روس.

«نعم، الليلة الماضية.» ذكرها بغضب بارد.

بانت الحقيقة وغرقت جيمسي في وسادتها لتستجمع أفكارها. لقد اكتشفت الحقيقة ومن الطبيعي أن يغضب.

«رأسي.» همست بلطف وأمسكت الضمادة على جبينها.

«ورجلي.» وشعرت بالألم عندما حركتها.

«ابقي ساكنة!» أمرها روس وأمر الجميع بالخروج من الغرفة وأقفل الباب بهدوء.

انحدرت جيمسي أكثر تحت أغطيتها وشعرت بأن روس على وشك البدء في حديث عن غبائها.

«أنا آسفة، يا روس؛ كان يجب أن أصغي لتحذيرك، لكن على الأقل وجدتها. هل وجدتها؟» سألت فجأة، وهي لا تعرف بالتأكيد. جلس روس على طرف السرير وصوته منخفض وغاضب.

«نعم، لقد وجدتها. هل هذا هو كل ما تهتمين به، شرف عائلتك الثمين؟»

انتصبت جيمسي. هاهما يعودان إلى طبيعتهما المعهودة. «لقد اعتذرت؛ إني آسفة للإزعاج الذي سببته، ولكنني مسرورة لأني وجدتها، وأستطيع العودة الآن وقد أبرأت إسم عائلتي.» سرت لأنها برأت اسم عائلتها ولكن السعادة بالنصر لم تجعلها سعيدة، وعوضاً عن ذلك شعرت بوحدة باردة تغلف قلبها.

«إذاً، متى تعتزمين العودة؟» قال وعيناه تشعان نحوها.

حاولت البقاء مسيطرة على أعصابها لكنها فشلت. هل يريد التخلص منها سريعاً؟ خائف من أنها ستخبر الجميع عن اكتشافها، فكرت بمرارة.

«أعتقد أن باستطاعتي الحجز على رحلة يوم الجمعة.» ردت.

«يومان.» رد: «هل تحسنت صحتك بما فيه الكفاية؟»

«البقاء هنا قد يضعفني أكثر.» نظرت إليه غير قادرة على منع نفسها من النظر إليه. انه يظن انها تريد أن تؤذيه كما آذاها، اللعنة عليه، ألا يعرف كم تحبه؟

وقف روس بثبات. «أعتقد أنه لا يوجد المزيد للكلام.» قال باختصار، وخرج من الغرفة.

راقبته جيمسي وهو يذهب؛ وقلبها مثقل بألم الفراق، عادت إلى وساداتها وصرخت بحرية لها، باحثة عن الراحة في نعومتها اللينة. لم تكن في الواقع قادرة على السفر ولكن، لا شيء يدفعها للبقاء في هذا البيت للحظة أكثر.

لم تر روس كثيراً بعد ذلك، كانت ممتنة لأن ذلك جعل الفراق أقل إيلاماً، ولكنها كانت آسفة لتركها سارة. وكانت ستعود إلى لندن ذلك اليوم وتطوع سام بلطف بأن يأخذها إلى المحطة لأن كاحلها المصاب يمنعها من أن تنتقل وحيدة.

«لا أدري لماذا أنت مصممة على الذهاب.» قالت سارة وقد سألت ذلك في أكثر من مناسبة ولكن جيمسي اكتفت بهز رأسها.

«ينبغي لي ذلك، أنا لا أنتمي إلى هنا، حياتي في أوستراليا.» واستدارت بسرعة غير راغبة أن ترى سارة

الأسف الظاهر في عينيها والألم العميق في داخلها.

«روس، أنت أخبرها.» ناشدته سارة وهو يدخل غرفة الصباح، وقد ألقى نظرة خاطفة على الحقائب وضاقت عيناه. «لقد أعددت كل شيء للرحلة، إذاً؟» سأل ببرود وهو يواجهها باستخفاف.

«إلى لندن، سام سيقودني إلى هناك.» شرحت بسرعة، وقد جف فمها تحت تدقيقه البارد.

«أرى ذلك، إذاً علي اعطاؤك شيئاً يذكرك بنا جميعاً.» قال بايجاز وهو يتجه نحو غرفة المكتب متوقعاً منها أن تتبعه.

وجهت جيمسي ابتسامة لسارة ولحقت بروس على مهل وكاحلها لا يزال يأبى التحرك كثيراً.

لاحظ روس الاجهاد في وجهها على الفور «هل أنت متأكدة من أنكِ شفيت كفاية بما يسمح لكِ بالسفر؟» سألها، وهو يراقبها عن كثب، فالإحمرار يندفع إلى وجهها.

«نعم، متأكدة تماماً.»

«ليس عندي أي مانع في بقائك.» عرض ذلك وهو يهز كتفيه في سلوك مبتهج.

لم يغمر جيمسي أي سرور من دعوته. لقد تحملت بما فيه الكفاية من روس ستيوارت العنيد؛ إنها الآن حرة من الذنب. ليس لديها أي سبب لتخجل من عائلتها، وعلى الرغم من ذلك لا يزال يواصل لعب دور السيد ستيوارت الكريم، سامحاً ببقائها. أحست جيمسي بشعور عارم من الغضب يسري في داخلها. رفعت رأسها إلى الوراء فوق كتفيها، وعيناها الخضراوان تشعان بالنار.

«أشعر بكرمك الزائد.» قالت. «لقد أمضيت حوالى

الأسبوعين هنا، اعتذرت باستمرار كوني من آل ماكدونالد، لكن ليس لدي المزيد يا سيد ستيوارت. ليس لدي المزيد! إنه أنت من تدين لي بالاعتذار. إني مريضة ومتعبة من تصرفاتك. أعتقد أني يجب أن أكون ممتنة لسماحك لي بالبقاء ولكني لست كذلك، كلما أسرعت في الخروج من هنا، كلما كان ذلك أفضل لي!» صاحت، وجهها تورد بسبب انفعالها ولكنها لا زالت تواجه بالنظرة الثابتة في وجه روس. تحرك بشكل سريع بحيث لم يكن لديها الوقت للابتعاد عنه، وجدت نفسها في الشرك بين يديه. دفعها بخشونة نحو صدره الصلب وارتعشت فوراً من لمسته.

«إبقي، يا جيمسي، إبقي هنا. أنا أعرف أنه يجب أن لا أطلب. إنك تستحقين الحرية في بلدك وليس التقيد بالتقاليد، لكنني أحتاجك، أريدك. نشعر بالحياة عندما نكون سوية، روحانا مرتبطان، موصولان. لا يمكنكِ تجاهل ذلك.» انخفضت نبرة صوته. «إني أريدك يا جيمسي.»

ابتعدت عنه بتوتر واقفة، وحانقة من اقتراحه.

«كيف تجرؤ؟ أتفترض أن كل أفراد الماكدونالد سيئون. هل تعتقد أني غبية إلى هذه الدرجة كي أبقى هنا، فقط لأرضي شهوتك؟ كلا، شكراً لك؛ لن أكون أسوأ في عينيك، ولكن اللعنة عليك، فلدي قيمي الخاصة بي.»

كانت تهتز بالغيظ والأسف، حتى الآن، كل ما يريده هو أن تكون معه في المخدع. إنها صالحة لشيء واحد في نظره، وذلك يؤذيها.

بقي ساكناً كلياً، محدقاً فيها وعيناه الرماديتان مسمرتان كالصوان، لعن نفسه بصمت. استدارت لتغادر.

ردة فعله كانت سريعة ومدهشة. أمسكها من كتفيها وهزها. يداه القاسيتان تشدانها بعنف. رأت وميضاً يلمع في عينيه بشراسة. لقد كانت مشدودة إلى عدم الحركة بقوة نظرته المغناطيسية. ثم أخذ يعانقها قاصداً إسكاتها.

«أحبك.» همس لها. عانقا بعضهما بعضاً ونسيا كل البغضاء... الحقيقة الوحيدة كانت أنهما يحبان بعضهما البعض.

«أتتزوجينني؟» ناشدها وهو يرفع رأسها بحيث يصبح بامكانه أن يرى النظرة في عينيها.

«نعم، نعم.» قالت وهي تقترب من البكاء مبعدة شكوكها، وأطلق تنهيدة من الارتياح.

«لم أعتقد أبداً أني أوافق على الزواج من ستيوارت.» اعترفت وهي تقع على صدره آمنة وواثقة من حبه لها. رفعت جيمسي رأسها وهي تنظر إليه غير مصدقة.

«لقد كنت أنت من دفعني إلى البقاء في البحث عن الثأر وليس أنا.» ذكرته بدعابة.

«لقد كانت المجوهرات مستحوذة على تفكيرك لتبرئة إسم عائلتك.» رد عليها، لا يزال مبتسماً لوجهها اللطيف الذي تغير.

«فقط لذلك...» توقفت.

«فقط لـ...؟» شجعها على المضي.

«فقط لأصبح مقبولة في عينيك.»

«أنت غبية!» ضحك وشدها نحوه. «أعرف منذ اللحظة التي قابلتك فيها أني وقعت في هواكِ وقد سلب ذلك جزءاً من حريتي. لقد كان صعباً على أن أعترف بهذا الواقع.»

«أدركت ذلك!» لديه الكثير من المسؤوليات وهو لم يتزوج بعد ولم ينجب أولاداً. زوجة وأطفال. أحمر وجه جيمسي عند فكرة أولاده، أولادهما، ماكدونالد وستيورات.

«ماذا حدث للمجوهرات؟» سألت فجأة وانسحبت بعيداً.

«ستكون هدية زواجك.» قال ذلك وهو يقدمها لها بعلبة جميلة من المخمل. امتلأت عينا جيمسي بالدموع.

«لا أستطيع.» وهي تمسح دموعها. «وماذا عن سام؟»

جذب روس يديها بشدة. «سام، ماذا عن سام؟» سأل والخشونة في صوته نمت عن غيرته.

ابتسمت جيمسي قائلة: «لا يوجد شيء بيني وبين سام، لم يكن أبداً هناك شيء، سوى في مخيلتك. لقد اهتممت به لأسباب تاريخية، ألا يحب أن يراها في المتحف المحلي؟»

«أنا آسف.» قال روس، وهي تحرر يديها. «لقد اثرت شكوكي بهذا الأمر. إنكِ تنتمين إليّ الآن وأنا أنتمي اليكِ.»

«وسوزان؟»

«سوزان صديقة ممتازة، ليس أكثر؛ لقد أدركت ذلك منذ ذلك اليوم الذي رفضت أن أتركك لأكلمها على الهاتف.» شرح ذلك وهو يعيدها إلى ذراعيه.

«أعتقد بأني أتذكر أنك كنت هناك.» تمتمت بلطف وهي تستنشق رائحة عطره وقد ضمها إلى صدره بحنان. شدها أقرب إليه وأخذ يداعب شعرها.

«لقد تبعتكِ تلك الليلة، كنت قلقاً عليكِ كثيراً، اعتقدت أن انفعالي الذي لم أسيطر عليه نحوكِ قد دفعك أخيراً إلى الهروب مني. لم أعرف إذا أغضبني ذلك أم سرني عندما رأيتك ذاهبة نحو الأنقاض ولكنني سعيد لأنك فعلتِ.»

«لماذا؟» سألته.

«لماذا؟ لأنني أعطيت كل ما لدي من المعلومات لسام وبدا أنه غير قادر على اكتشاف اللغز.» أخبرها بصدق آملاً أن تفهمه.

«تعني أنك في الواقع كنت تريدني أن أكتشف ذلك؟» سألت غير مصدقة، وهي تعرف الجواب لسؤالها.

«طبعاً، أعتقد ان ما اكتشفته هو الحقيقة تقريباً، وما تبقى، هو أن دنكن لَم يقتل.» لقد أحضرت خبراء عملوا لأيام، يبدو أن جمجمته كانت رقيقة؛ وقع ومات على الفور. ربما كان هناك قتال، من يعرف؟ من الواضح أن آل ستيورات ذعروا، فخبأوا المجوهرات لإخفاء الحقيقة.»

صدرت عن جيمسي رعشة لا إرادية وهي تفكر بذلك. «كم هي مرعبة هذه الذكريات المخزنة.» قالت اقتربت منه أكثر، وانطوت صفحة الماضي.

«حسناً، على الأقل وضعنا التاريخ في الطريق الصحيح. وعلينا إبقاء ما تبقى من الهيكل العظمي مدفوناً في ساحة الكنيسة إلى جانب هيثر. هل تعلمين أنها لم تتزوج أحداً بعده؟ يقولون إنها ماتت بصدمة قلبية في خلال ستة أشهر من اختفاء دنكن. والآن علينا أن نتزوج، آل ستيوارت وآل ماكدونالد عليهم الاتحاد أخيراً.» قال روس بجدية.

«مهما كان رأي كاميرون بذلك؟» صاحت جيمسي ولكن روس لم يجبها، فقد عانقها مستحوذاً عليها، مدركاً أنه لن يدعها تذهب على الإطلاق.

تمت